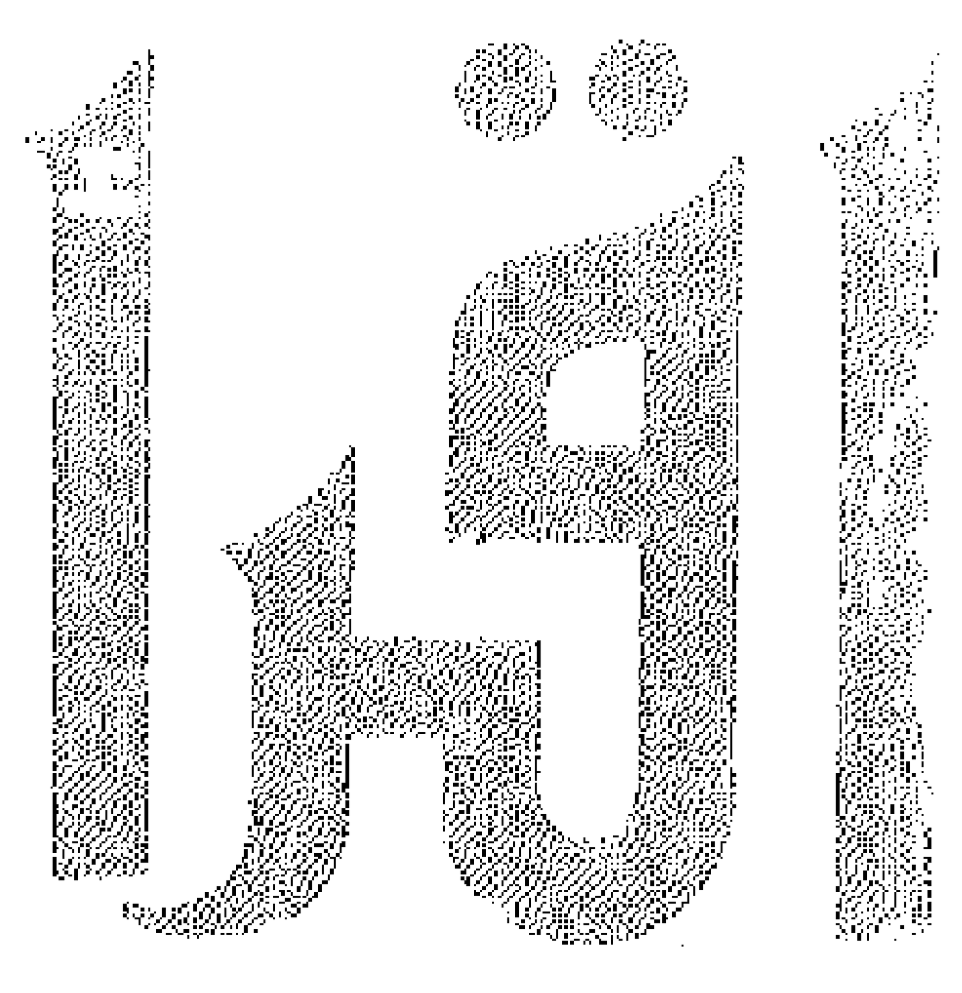
عفاف عزيز أباظة

أبي عزيز أباظة



سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

| ٦٣١ |

رئيس التحرير: رجب البنا

تصميم الغلاف : منى جامع

عفاف عزيز أباظة





دار المعارف

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها ، لم يفكروا إلا فى شىء واحد ، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة ، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية . وأن ينتفعوا ، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة ، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها .

طه حسين

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

أبى عزيز أباظة

تفتحت عيناى، ورأيتنى أعيش فى بيت أبى مع عمى أحمد وعثمان، وشبت قلوبنا على حبهما، فقد كان أبى لهما أخا وأبا، وكانت أمى ابنة عم وأختا وكان البيت سعيدا هادئا. نشأنا فى هذا البيت، وسمعنا فيه أول ما سمعنا الشعر حتى قبل أن نسمع الكلام، كنت أرى أبى جالسا بين أخويه وأعمامه جمال الدين أباظة ومحمد أباظة، يقرأ عليهم بصوته الحنون.. مختاراته من الشعر القديم.. وكنا نهتز للشعر رغم أننا لم نكن نفهم منه ونحن فى هذه السن حرفا، وقد ألفت آذاننا الشعر الجاهلى، والشعر الإسلامى فلم نهبه عندما أوصلتنا إليه الأيام فى المدارس الثانوية .

ومازلت أراه وأسمعه يردد الأبيات الأثيرة عنده ومنها :

وإنى لتعرونى لذكراك روعة — لها بين جلدى والعظام دبيب

وما هو إلا أن أراك فجاءة — فأبهت حتى ما أكاد أجيب

وأعرض عن رأيى الذى كنت أرتاى

وأنسى الذى أعددت حين تغيب

ويظهر قلبى عذرها ويعينها

على، فما لى فى الفؤاد نصيب

أو يروى :

أستغفر الله إلا من محبتكم
فإنها حسناتى حين القاه

فإن زعمت بأن الحب معصية
فالحب أجمل ما يعصى به الله

وللعم ابن عبد الله :

قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى
وقل لنجد عندنا أن يودعا

بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربا
وما أحسن المصطاف.والمتربعا

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها
عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

واذكر أيام الحمى ثم انثنى
على كبدى من خشية أن تصدعا

وليست عشيات الحمى برواجع
إليك ولكن .. خل عينيك تدمعا

ولعمر بن ربيعة:

ومظهرة لخلق الله ودا
وتلقى بالتحية والسلام

أتيت فؤادها أشكو إليه
فلم أخلص إليه من الزحام

فيـــا مـــن ليـــس يكفيـــه محب

ولا ألفـــا محـــب كـــل عـــام

ولعروة بن أذينة:

إن التـى زعمـت فـؤادك ملـها

خلقت هـواك كما خلقت هوى لهـا

بيضـاء باكرهـا النعيـم فصاغـها

بلباقـــة فأدقـــها وأحلـــها

فإذا وجـدت لهـا وسـاوس سـلوة

شـفع الضمـير إلى الفـؤاد فسـلها

منعـت تحيتـها فقلـت لصـاحبى

مـا كـان أكثرهـا لنـا وأقلـها

فدنـــا وقـــال لعلـــها معـــذورة

مـن بعـض رقبتـها. فقلـت لعلـها

وللشاعر الأحوص:

أزور بيوتـــا لاصـــقات ببيتهـــا

ونفـسى في الـدار التى لا أزورهـا

ولــه :

أدور ولـــولا أن أرى أم جعفـــر

بأبياتـــكم مـــا درت حـــيث أدور

وللبحترى :

الله جـــارك فـــى انطلاقـــك
تلقـــاء شـــامك أو عراقـــك

لا تعذلنـــى فـــى مســـيرك
يـــوم ســـرت ولم ألاقـــك

إنـــى خشـــيت مواقفـــا
للبـــين تسـفح غـــرب مـــآقك

وحـــذرت مـــا يجـــد المـــودع
عنـــد ضمـــك واعتنـــاقك

فتركـــت ذلـــك عامـــدا
وخـــرجت أهـــرب من فراقـــك

كـان أبـى يـردد شـعر شـوقى ويطـلب منـا أن نـردده وراءه، وأن نحفظه.. فقد كان شديد الإعجاب بشوقى شديد التعصب لـه. وكـان أخى فى سن السادسة يحفظ الكثير مـن مجنـون ليلـى، ويمثـل دور المجنون أمام زينب صدقى التى اشتهرت بدور ليلى فى ذلك الحـين وكانت تجاربه ضاحكة.

كان يجمعه بوهيب دوس المحامى الذائـع الصيـت حينئذ حـب وصداقة وقوى أواصرها إعجابـهما العميـق بشـوقى. فلقـد تمـرن أبـى بعـد أن حصـل علـى ليسـانس الحقـوق فـى مكتـب وهيـب دوس..

ولم يشتغل أبى بالمحاماة وإنما نمت صداقة قوية بينه وبين أستاذه. وأذكر أن أبى كان يكلمه بلهجة كلها إجلال وتوقير حتى بعد أن علت سنه ولم يعد ذلك الشاب اليافع.

كانت تجمعنا «الربعماية» فى الصيف بأعمامى وأقاربى محمد وهيام ورأفت وماهر وهو أصغر أعمامى ومنى سناً. وهو دمث الخلق عفيف النفس وكان هو المتفوق الوحيد بيننا، وهو الآن وكيل لوزارة الكهرباء. وكنا نقضى يومنا فى الاستماع إلى الفنوغراف وفى تأليف المسرحيات. أما الحوار فكنا نؤلفه أثناء التمثيل، وكانت والدتى تأتى بمقرئ يشبه صوته إلى حد كبير صوت الشيخ محمد رفعت يسمى الشيخ السيد الجمل، وكان يقرأ السور الصغيرة بصوت دافئ ومازلت إلى الآن أشعر بحنين لطفولتى كلما سمعت هذه السور، وفى المساء يغنى الحاج عبده، وهو مغن يأتى به أبى ليقضى معنا أجازة الصيف.. كنا نجتمع بعد العشاء كبارا وصغارا لنستمع إلى الأدوار القديمة والقصائد التى كان يطلبها أبى وأذكر منها «وحقك أنت المنى والطلب» و «آنست يا نور العيون» وكنا نقاوم النوم حتى لا يرسلنا أهلنا إلى حجراتنا، وكان أبى يشجعه ويستعيده.. فكان الحاج عبده يترك الغناء وينتفض واقفا ويحيى بيديه حينا وبعوده أحيانا ثم يستأنف الغناء وكأنه لم ينقطع عنه قط، ويعود أبى إلى مداعبته.. ويعود هو إلى الحركات المتتابعة التلقائية.

كنا في الصيف نستأجر بالإسكندرية بيتاً جميلا فى جليم، وكانت تزورنا فيه مغنية تعدت سن الشباب تسمى فاطمة العراقية وأذكر أننا كنا نخرج من البيت مساء ونمشي على الكورنيش والبحر يضرب الرصيف بأمواجه، وتغني فاطمة العراقية، بصوت ظل جميلا - الأغاني القديمة إلى أن نصل إلى ستانلي لنزور عمي عبد الله فكري أباظة بهذا الموكب.. والغريب أنني أذكر أن المارة كانوا قلة، وأذكر أن أحداً لم يتعجب من هذا المنظر.

ونعود بعد السهرة سيرا على الأقدام، ولكن أبي كان يحمل المتعب منا إذا غلبنا النوم أو أتعبنا المشي.

وكثيرا ما كنت أسمع أبي يلحن الابيات التى تعجبه على جميع النغمات يرددها لنفسه وخصوصاً هذا البيت الذى لا يفارق ذهنى:

أمـا والـذى أبكى وأضحـك، والذى

أمـات وأحيا، والذى أمـره الأمـر

وكبرنا وهذه الكلمات الجميلة ترن فى آذاننا والموسيقى والغناء تملأ حياتنا، وعرفنا أم كلثوم وكان لها مكانة خاصة فى بيتنا «فقد جمعت بينها وبين أبوى صداقة وحب.. ودعاها أبي في كل مديرية عمل بها.. واستقبلها في كل مرة استقبالاً حافلاً.. وكانت تعود من حفلها إلى بيتنا.. وتسهر معهم ولا أقول معنا حتى الصباح تغنى آخر أغنياتها الجديدة.. وقبل نزولنا إلى المدارس في الصباح كنا نسمع من أهل المنزل أخبار السهرة ونلعن النوم الذى حرمنا من غناء أم كلثوم.

وكلما نظرت الآن ورائي إلى البيت الذى كانت فيه أمى.. أراه كالحلم الجميل كله شعر وحب ووفاق.

فقد كانت أمي حب وطفولة أبي وأمل شبابه، وتمكن هذا الحب منهما حتي أحسسناه نحن، وكنا أطفالا لم نزل، وشعرنا به يملأ بيتنا وحياتنا.

سافر أبى سنة ١٩٣٧ إلى أوربا واصطحب معه أمي وبقينا نحن في الربعماية، سافرا للعلاج ولحضور المعرض في باريس، ونشرت إحدى المجلات صورتهما مع إسماعيل باشا صدقى وهما عائدان على المركب «اوزونيا» وكان أبى يحبه ويقدره.. وأذكر أن القيامة قامت وقتذاك فى أسرتنا، فقد ثار جدى لأمي وهو عم والدى لنشر صورة ابنته فى المجلات وقاطعهما. وأذكر أن أعمامهما بذلوا جهداً كبيراً حتى صفح جدى عن هذا الإثم العظيم، وذهبت أمى إلى أبيها تقبل يده ومعها أبى معتذراً خاشعاً.

وحين عين أبى مديرا للمنيا ذهبنا معه وانتظمنا فى المدارس هناك وأذكر أن أختى أشارت عليّ مرة أن نقول لمدرسة الحساب التى تأتى إلى البيت إن أبى يطلب منها أن تعفينا من الدرس في ذلك اليوم وأن نقول لأبينا إن المدرسة قد أصابتها وعكة ولن تحضر، ونغتنم الفرصة ونستأذن فى الذهاب إلى السينما، وقد كان. وبعد أيام ظهرت الكذبة، ولست أدرى كيف؟ فهي كذبة صغيرة كان يمكن أن

تمر ولكنها لم تمر.. وغضب أبى وثار ومنعنا من الظهور أمامه أسبوعا كاملاً، ولم يكتف بذلك وإنما طلب من ناظرة المدرسة أن تخبر زميلاتنا بما حدث فنفذت الناظرة الطلب بدقة.

وفى طابور الصباح وأمام الجميع روت قصة التلميذتين الكاذبتين كما أسمتنا، ولن أنسى ما شعرت به من خجل وهوان ولست أدرى علام كان كل هذا الغضب، فأولادنا اليوم يتعجبون إذا نحن احتججنا على هروبهم من الدرس أو من المدرسة نفسها، وهم والحق يقال لا يكذبون ولكن ليس تمسكا بالفضيلة وإنما لأنهم لا يحتاجون للكذب فهم لا يخافون شيئا ولا يهابون أحدا. وإنى أفضل الكذب مع الاحترام على الصراحة مع الاستخفاف.. واللامبالاة.

كنا نقطع المسافة بين المنيا والقاهرة فى حوالى سبع ساعات فى السيارة، فكنا نتغلب على الملل بالمطارحة الشعرية، وكنا نتبارى فى حفظ الشعر حتى يمكننا أن نضيق الخناق على منافسنا. وأذكر أنه بعد سنوات من ذلك تقدم لأختى خطيب ووافقت عليه فقبله أبى ووعد وأعطى كلمته، ثم عادت أختى ورفضت الخطبة فأحرجت والدى، فتردد وانتابته الحيرة وبدأنا أمامه مطارحة.. وتعمدنا أن نقول من شعره فى قيس ولبنى.

مــــرنى أطعــك فما عصيتك مــرة

أبتـــاه لكن مـــا طلـبت عظـــيم

والواقع أنه لم يطلب شيئا وإنما نحن الذين طالبناه أن يرجع عن كلمته وأن يتراجع عن وعده.. ولا نكتفى بذلك بل نلومه أيضا.

وكان يحلو لأبى فى المناسبات العائلية أن يطلب منى أن أقف فوق المائدة وأن أخطب باللغة العربية، والآن يقول لى إخوتى إننى كنت فى غاية ثقل الظل.. غير أن أبوى كانا سعيدين بى، وإن كنت أشك فى ذلك، فلابد أنهما كانا يريان أيضاً رأى إخوتى، ولكن لا يظهران، فالأطفال فى سن الثامنة يكونون فى قمة السخافة وثقل الظل.

وكنا نحتفل بعيد زواج أبوى احتفالاً عائليا، فإذا كنا فى الربعماية دعونا الأقارب وقضينا اليوم فى الدهبية فى بحر مويس كما يسمونه هناك، ويجامل أبى المدعوين جميعا ويشعر كل واحد منهم بأنه الضيف الوحيد، ويوزع عليهم الهدايا البسيطة ليشركهم معنا فى أعيادنا وإذا كنا فى المنيا وزع علينا نحن الهدايا وقضيناه معا سعداء فرحين.

ومن العجيب أن يكون أهل بيته جميعاً من غواة الشعر والأدب حتى جمال المشرف على شئون المنزل.. فقد اصطحبه أبى إلى المنيا وهو ابن عامل التليفون فى الربعماية وكانت إدارة البيت وظيفة ثانوية بالنسبة له، أما الوظيفة الأساسية فكانت حفظ الشعر وكان

يتكلم بالشعر ويعاتب بالشعر، ويعاكس بالشعر. أذكر أن ابنة خالتى كانت مخطوبة ويبدو أنها ضايقته فى شىء يختص بعمله، فكان كلما رآها تصلى قال لها مداعبا:

صلّى وصام لأمر كان يطلبه
فلما انقضى الأمر لا صلّى ولا صاما

وكان من المناظر الغريبة أن نرى جمالاً. المسئول عن نظافة المنزل. يزاول عمله وفي يده الشوقيات ولا أنس ذلك اليوم، كنا لانزال في المنيا، وكنا نجلس مع أبى قبيل الغروب وإذا بصديق له يطلبه تليفونيا، ويرجوه فى اضطراب بأن يذهب إليه فورا، فيذهب أبى مسرعا ثم يتكلم بعد ساعات قائلاً: إنه سيقضى الليلة مع صديقه هذا، وكان هذا الصديق قد طعن في كرامته من أهل بيته، وفوجئ بحياته تتصدع ووجد نفسه وحيداً مع أولاده، لا يعرف ماذا يصنع بهم؟، ولا ماذا يصنع بكبريائة؟، فكبر عليه الأمر، واضطربت نفسه. وانهار الرجل، ولم يبق أبى معه ليلة واحدة كما كان مقدرا، وإنما ظل ساهراً إلى جانبه عدة ليال، يحاول أن يشد من أزره، وأن يعيد إليه زمام أمره.

وفى المنيا أيضاً بدأ أبى رواية «قيس ولبنى» ولكنه بدأها تحت إلحاح ابن خالتى وكان تلميذا فى المدرسة السعيدية، وهو الآن

رئيس سلاح الإشارة بالإسكندرية العميد شريف أباظة، يحب الشعر وكله رقة، وكانت تسانده فى الإلحاح أخته تغريد وهى قارئة ممتازة وملمة بكل دقائق شئون المنزل وكان أبى يقول عنها «وما الذى لا تعرفه تغريد» وكما كان لها شأن فى تأليف «قيس ولبنى» كان لها الشأن فى ظهور هذا الكتاب.

وكانت أمى قد احتضنتهم بعد وفاة شقيقتها، ووجدوا فى أبى أبا وصديقا، وكنا كلما اجتمعنا بعد الغذاء زاد الإلحاح من أبناء خالتى وكان جوابه دائما: «لنبدأ غداً» وتوالت الأيام ولا يأس من هنا ولا شعر من هناك حتى قالا له فى آخر محاولة لهما: إن شوقى قد كلفك بكتابة «قيس ولبنى» فابدأ وإن أردت بعد ذلك ألا تكملها فلك ما تشاء، فقال ضاحكا: هات قلما وورقة واكتب يا شريف.. وكانت بداية «قيس ولبنى».

أديرى علينا شهىّ السير

وقولى فقولك راح السمر

فديتك لبنى فهل عن هوى

حديث وهل عن محب خبر

لبنى : وماشأنكم بهوى العاشقين

كفاهم عذابهمو المستعر

دعوهـم لنـار تقـد الحـديد
ولا عـج شـوق يذيب الحجـر
يقومـون يومـهمو نزعـا
ويجمعـهم ليلـهم بالسـهر
رثيت لهـم في شـقاواتهم
كأن حملـوا سيئات البشـر

ثم لا يمضى شهر إلا وقد تم جزء كبير من قيس ولبنى وهكذا بدأها مجاملا ثم لم يجد نفسه إلا وقد أتى بالحسين خاطبا وشفيعا لقيس لدى الحباب والد لبنى فيقبل الزواج ثم تجرى الأحداث إلى أن يدب الخلاف بينها وبين أهل زوجها ويتهمونها بالعقم ولا يحتمل قيس الصراع القائم فى بيته فيمرض، ثم يخضع لرأى أبيه وأمه ويطلق لبنى، ويضرب قيس فى الصحراء هائما على وجهه، فيقابل مجنون ليلى ويشكو له همومه وآلامه.. ويهيب به أن يعيد إليه لبنى وكانت قد تزوجت.. فيحاول.. وينجح.. وكانت مسرحية قيس ولبنى هى أول مسرحية لأبى وهى عبارة عن مشاعر حلوة، وحب حان، ومشاكل تنساب برشاقة إلى حلولها، وكذلك كانت حياته فى ذلك الوقت، وجمل الشعر حياتنا منذ طفولتنا الأولى وأضفى عليها نوعاً من الرومانسية الحالمة.

ومن المنيا نقل أبى محافظا لبورسعيد سنة ١٩٤٢ أثناء الحرب العالمية الثانية.. وكانت بورسعيد تضرب يوميا بالقنابل.. وتعرض

مبنى المحافظة حيث كنا نقيم – لقنبلة غير أنها لم تنفجر، ولم يشأ أبى أن تهاجر أسرته إلى الربعماية.. وإنما سمعته يقول: كيف أبعد أسرتى والزوجات والأطفال أمام عينى يملئون مدينة بورسعيد.. إن ما يجرى على أهل المدينة سوف يجرى علينا، وبقينا معه، واكتفينا بأن نقضى الليل فى المخبأ.. وكنت أذهب إلى المدرسة الابتدائية وكانت لاتبعد عن بيتنا إلا بمسافة كيلومتر واحد كنت أقطعه عند الضرورة سيراً على الأقدام فى ساعة أو أكثر، فقد كنت مع زميلاتى نتكلم ونضحك طوال الطريق ويمر الوقت دون أن نشعر، وكأنما لم نكن معا منذ الساعة السابعة صباحاً وعندما أصل إلى باب البيت يكون قد فات على ميعاد رجوعى أكثر من ساعتين فكانت أمى تغلق على. ولما تكرر الأمر وضاقت بى طلبت من أبى أن يرسل إلى ساعيا ليعود بى إلى البيت مباشرة، وكنت فى الثانية عشرة من عمرى وجاء الساعى إلى المدرسة فى الساعة الثانية ظهرا وكان رجلاً مسنا سمينا وقورا.. وكان طربوشه يخفى الشعر الأبيض الذى يحدد رأسه وأصر الرجل أن يحمل عنى الحقيبة، وكانت كبيرة جدا لا أدرى لماذا وحاولت بكل قواى أن أثنيه فلم أفلح، لم أشأ أن يحملها عنى وهو فى سن جدى ولكنه تمسك باستماتة، وقبل أن أغادر المدرسة علمت من زميلاتى أنه جد واحدة من صديقاتى.. وسقط قلبى ولم أدر ماذا أفعل؟.. وفى اليوم التالى فكرت وقلت بنفسى «إننى سأنتظر حتى تنصرف جميع التلميذات من المدرسة حتى لاتراه حفيدته وهو يحمل

لى الحقيبه.. وفعلا هذا ما حدث ولكن قبل أن أغادر المدرسة جاء من يخبرنى بأن حفيدته تبكى لأننى تركته ينتظرنى كثيراً أمـام البـاب. فحرت في أمرى ووجدت أن هـذه المشـكلة تفوق احتمـالى وعجـزت تماماً عن إيجاد الحل الملائم.. ذهبت إلى أبى بخوف وتردد وخجـل وقصصت عليه القصة ورجوته أن يقنع الساعى ألا يحمل الحقيبـة.. فأجاب أبى بحده بل لا يذهب على الإطـلاق «لـماذا لم تقولى لى من أول يوم؟ لماذا تركته يحمل الحقيبة؟ لماذا تركته ينتظرك؟ لقـد آلمـت صديقتك وسببت له الحرج» فأجبته إننـى خفـت أن أشـكو مـن أول عليك أن تعودى فى مواعيدك حتى لا تقلقى أمك ولا تتسببى يوم فى إيلام الناس، رحم أبى صديقتى ورحم مشاعرها ورحم الجد الذى أصر على أداء ما تصور أنه واجبه، وحلت المشكلة برفق وبإنسانية.

وفى بورسعيد امتحنت أمـى بمـوت شـقيقها المـهندس عبدالعزيـز أباظة وهو فى شرخ الشباب وكانت قد فقدت قبله شقيقين وشـقيقة، فلم تحتمل هذه النكبات المتتابعة، وزحف إليها المرض، وثقـل علـى قلبها السقم، وبدأنا منذ ذلك اليوم نعيش مـع الخـوف، ونحيـا مـع القلق، وظلت شهوراً أربعة هـى التـى عاشـتها بعـد أخيـها.. تقاوم المرض والمرض يقاومها وتدافع الهموم والهموم تدافعها، يخرج طبيب ليأتى طبيـب، ثم نقلـت إلى مستشـفى القلـب بالإسماعيليـة، وكـان مديره الدكتور جوديـل الطبيـب الفرنسـى المشـهور فـى ذلـك الوقـت وكنت أرى أبى شاردا حزينا.. يخفى هلعه بين ضلوعه، وكنت كلما

خلوت إلى أمى أسندت رأسى إلى كتفها وبكيت دون أن أعرف سببا لبكائى، إلى أن رآنى أبى مرة، وعنفنى على ذلك، فعجبت لتعنيفه، ولكننى قدرت مشاعره، بل ورثيت له، ولكن بعد ذلك بسنوات. وحينما كانت تفاجئ أمى النوبة القلبية.. كان أبى يسارع إليها.. ويسند ظهرها على صدره ويعكس وجهه ماتلاقيه هى من آلام وأوجاع، إلى أن انتزعها الموت يوم ١٩ يونيو سنة ١٩٤٢ وهى بين يديه، فاندك البيت علينا ولما أفقنا، وجدنا أبا ملتاعا، ووجد هو أبناء ذاهلين.. ووصف هذا اليوم فى ديوانه.

دفعت صدرها إلى وألقت
رأسها عند راعد ذى خفوق
ثم قالت فى أنة تتهاوى
أزفت ساعة الفراق السحيق
لا ترع واحمل الفجيعة جلدا
لست للضعف عندها بخليق
وأشارت لطفلة تشهد الهول
بقلب دام وجفن غريق
قالت ارع الاولاد وابق كما كنت
مثال الأب المحب الرفيق
ومضت تنزع الحياة وتلقى
فى زفير آصارها وشهيق

في سـنى لامـح وعـرف ذكـى

وابتسـام عـذب ووجـه طليق

لـو تراهـا تقـول قـد مسـها البـهر

فمـالت إلى سـبات رقيـق

ووقفنـا مروعـين نجيـل الطـرف

بـين التكذيـب والتصديـق

ثـم عدنـا للحـق عـانين صرعى

مـن مفيـق يـهذى وغـير مفيـق

ومنذ ذلك اليوم بدأ كل منا يبحث عن طريقه ويتخبط فى الدنيا دون هداية الأم وحنانها، ولهفتها.

واندلعت النار من قلب أبى آهة مدوية هى «أنات حائرة» وكان إهداؤه «إليها فى أكرم جوار» ومن الأبيات التى هزتنى دائما هذه الأبيات التى يصف فيها أول زيارة إلى قبرها، وكنا نذهب معه إلى هناك، فينتحى جانبا ويتحدث إليها فى همس، ولم يفارق هذا المنظر مخيلتى، وكنت دائما أتساءل عما يقوله ولا أجد جوابا إلى أن قرأت هذه الأبيات:

الزيارة الأولى:

دعـانى لهـا الشـوق الدخيـل وهزنى

إلى المضجـع الاسـنى حنـين مكتـم

أفضت لهـا حتـى إذا جئـت شـفنى
لهيـــب أواب يـــهم ويحجـــم
فـلا أنـــا أســـتطيع القفـول فـأنثنى
ولا أنـــا أســـتطيع المثـــول فـــأقدم
ولمـــا كفـفــــت الدمـــع إلا أقلـــه
ونهنـهـت فى جنبــى نــارا تضّـرم
دخلـت عليـهـا فـى وضوئـى وروعتى
كمـا يدخـل البيـت المحـرم محـــرم
وقفـت يقـص الدهـــر تـــاريخ غـــابر
من العمـر والعمـــر ابتســام وأنعــم
تمثلتـــها منضــورة الحســن طفلـــة
يضـئ الدجـى منـها جبـين ومبســـم
وطاويـــة عـــهد الدراســـة كاعبـــا
تروعـــك فيـــها تضـــرة وتوســـم
ومجلــوة للعـــرس وضـــاءة الســـنى
تـــأود فـــى وشـــى الشـــباب وتنعـــم
وجامعـة فـى بيتـــها شمـــل بيتـــها
توســطهم كـــالبدر حفنـــة أنجـــم
فمحمولـــة منـــه إلى ســـاح مفضـــل
يقبــل ويعفــو عــن كثـــير ويرحـــم

وقفت أناديها وأهتف باسمها
وألحف حتى أوشكت تتكلم
وقلت لها يا زين ما من فجيعة
تعاظمنى إلا وفقدك أعظم
فأنت لعينى مذ تراءتك قرة
وأنت لنفسى مذ تمتلك توأم
وحبب فيك النفس عليا خلائق
إذا لم تحببها الوشائج والدم
سأكرم أكبادا تركت فإن أمت
فإن إله الناس بالناس أكرم
عليك سلام الله يا أم واثق
ووالاك من جدواه هتان يثجم
سيبكيك لايفنى دموعا ولادما
مدى العمر مقروح الجوانح أيم

وحمل أبى أحزانه بين ضلوعه، وذهب بهم إلى أسيوط مديرا لها، وبقى هناك ثلاثة أعوام أحب خلالها أهل أسيوط وأحبوه، فقد كان أبى قريباً إلى القلوب. الكلمة الحلوة تسبق إلى لسانه دون أن يبحث عنها. والابتسامة المرحبة المطمئنة تبدو على شفتيه دون أن يقتعلها. كان يحب الناس كما هم يحبونه ويقدر أن للبشر حدودا لا يطالبهم بالتفوق عليها.. وهذا فى نظرى هو سر حب الناس له وقد كان

مهيب الطلعة فارع الطول أنيق الملبس والحركة على وجهه جمال وجلال من الملفت للنظر أن جيل أبى كله أو معظمه تجمعهم صفات متشابهة، فكلهم قرأ الأدب العربى وأحبه والغربى واستوعبه. كلهم قرأ القرآن وارتكز عليه ليحمل لغته كلهم قرأ التراث وبنهم وشغف. سمعتهم يتناقشون، وسمعت حوارا ممتعا أخاذا يستعرض التاريخ والأدب والشعر والفن والسياسة.. وراعنى منهم تنوع الثقافة وجمال العرض صقلتهم التربية القديمة فهم متواضعون فى كبرياء. بسطاء فى عز شبوا على تحمل المسئولية والترحيب بها.. إنه جيل شرف مصر كلها فى جميع المجالات.

كانت حياته فى أسيوط رتيبة يذهب إلى مكتبه فى الصباح – وإلى نادى البلدية بعد الظهر، ويعود إلى بيته فى الساعة التاسعة فيجدنا: أختى وأخى وأنا فى انتظاره ولكن كالتماثيل، فقد كان الأدب وقتذاك يقتضى ألا نبادئ الكبار بالحديث وأن نرد على قدر السؤال إذا سئلنا، وكنا فوق ذلك كله نهابه. ومهما يحاول أن يفتح أبواب الحديث كنا نغلقها بكل أمانة، ونعود إلى الصمت المطبق لنحيل حياته إلى ملل وبيته إلى صحراء.

أذكر أننا عدنا مرة من السينما فسألنا أبى من باب المسامرة.

– رحتو السينما

– نعم

فقال لأختى

- عجبكم الفيلم ؟

- إيوه

- الفيلم عبارة عن إيه.. حكايته إيه ؟

- واحد بيحب واحدة

- فسكت يأسا واستسلاما

وكانت أختى تتبع نظاما قاسياً فى الغداء لتخفيض وزنها، فإذا طلب منها برفق ألا تقسو على نفسها ولا على صحتها. غضبت وحبست نفسها فى غرفتها يومين أو أكثر، واعتبرت هذا تدخلا فى شئونها الخاصة، فإذا ما سأل عنها وعلم باحتجابها. لم يعلق وإنما يترك الأمر يمر ببساطة.. ومما يلفت النظر عند أبى أن وجهه كان يعكس كل ما يدور بنفسه وكانت والدتى تحس به وتقرأ بنظرها دخيلة نفسه، وتفهم إذا كان يشكو من ضيق أو غضب أو ملل وتسارع وتقترح هى ما يريده هو. دون أن ينطق ببنت شفه، واعتاد على ذلك وظل على هذه الحال إلى أن أوقعته الأيام فى أيدينا، فى أيدى ثلاث كوارث فى أيدى ثلاثة أولاد يرونه والهم يعصف به والسأم يملأ نفسه وكل منهم فى حاله، تشغله المدرسة والمصروف والقلم والأستيكة..

وقد ظل أبى مرتديا البدل السوداء عامين كاملين بعد وفاة والدتى، ثم جاء يوما يخبرنا بكل رقة أن أصدقاءه فى أسيوط، واذكر

منهم وهيب دوس وحبيب دوس وكمال نخلة.. رجوه أن يخلع السواد فإذا بنا ينظر كل منا إلى الآخر فى امتعاض، وإذا بنا بعد أن نخلو إلى أنفسنا نتهمه بأنه هو الذى يريد ذلك، وكأنه جرم لا يغتفرنتفق على أن نكشر إظهاراً منا للاحتجاج، وإنى كلما تذكرت تلك القسوة منّا لا أغفر لنفسى ولا لإخوتى هذه التصرفات الصبيانية التى تحمل فى ثناياها الأنانية والوحشية.. فقد كنا سعداء بأحزانه

هانئين بآلامه، ولكن لا ننسى نحن أن نذهب إلى السينما كل أسبوع. ولا أن نختار الألوان الزاهية لملابسنا - والويل كل الويل لأبينا إذا هو حاول أن يخفف مما به. وقد نوه عن ذلك حين قال:

لما خلعت سوادى فيك عاتبنى
بمطرق من كسيف اللحظ أكبادى
أنا الذى تتراقى النار فى كبدى
أما أحس أوار النار أكبادى
من أجلكم وصباكم فى بشاشته
نهنهت ارسال دمعى الظاهر البادى
حطمتمو بالصبا اصفاد رزئكمو
وظلت أحمل اغلالى واصفادى

وإنى الآن أتمنى لو أنه أمسك بنا نحن الثلاثة وأوسعنا ضربا وشفى فينا غليلى الذى يعذبنى إلى اليوم.

وظللنا سنوات إذا اجتمعنا على المائدة فمكان أمـى موجـود لا يشغله أحد ولو زاد عددنا أو احتجنا إلى المكان.

كانت أختي تكبرني بعامين. كانت في السابعة عشرة من عمرها، على وشك الزواج من ابن عمتها أكمل أباظة.. وهو الآن من المزارعين الناجحين في الشرقية ويحب الشعر، ومع مـرور الزمـن أصبـح ذراع أبي الأيمن يباشر الزراعة التى لم يكن أبى يعـرف عنـها الكثـير، وزادت الألفة بينهما واعتبره أبى ابنه الأكبر كانت اختـى بسـبب هذه الخطبة تسمح لنفسها بالتزين، وكنت أرى ألاّ حق لها فى هـذا إلا بعد الزواج فذهبت إلى والدى والغيظ يدفعنـى وقلت لـه «أختـى تتزين وتكثر من الزينة» وطلبت أقسى العقوبة على ذلـك – ولكننـى روعت عندما نظر إلىّ نظرة كلها لوم وتأنيب وقال لى «وانـت مـالك» فخرجت مسرعة أبدى حنقي وأخفى خجلى واصطدمت بأختى وهى تكمل زينتها باسمة ولكنه عاتبها على الغذاء كما قالت لى أختى بعد ذلك وتدور الأيام وأذهب إليه بعد عشرين عاما لأشكو له ابنتى ومـن نفس السـبب.. ويكـون رده مشـابها لـرده القديـم، ويطلـب منـى أن أتخلى عن أفكار القرن الماضي قد كان دائما يتهمنى بالتـأخر – ولـه القدرة على تفـهم مشـاكل الشـباب ويفوقنـى كثيراً فـى الوصـول إلى عقلية أولادى.. ويسـخر منـى كلمـا تصديـت للأمـر الواقـع ويـناقش ابنتى فى الحب والزواج، وتتكلم هى معـه ببسـاطة وحريـة وتعـرض

أراءها بإسهاب وتصف له وهى فى الخامسة عشرة من عمرها كيف تريد زوج المستقبل فى الوقت الذى لا أجرؤ فيه أنا على إبداء رأيى أمامه لا فى الحب ولا فى الزواج، بل أننى لا أستطيع أن أكلم زوجى فى وجوده بالحرية التى تتكلم بها هى عن زوج المستقبل.

كانت خالات أبى وهن كريمات إسماعيل باشا أباظة دائمات السؤال عنه وهو فى أسيوط.. وكانت تجمعه بهن صداقة قوية وحب متبادل وتفاهم كبير.. كان يجد عندهن راحة نفسية فقد أحببن والدتى ا وقدرن أحزانه وآلامه، بل وشاركنه فيها، وكنا نتوجه إليهن كلما أردنا شيئا كماليا من أبينا، فتتحول الطلبات إلى أوامر تصدر إليه فيدفع بعد دفاع صورى عن النفس، وكانت أكثرهن إلحاحا عليه هى حرم الدكتور حسين أباظة، وقد ظلت توالينا إلى أن تزوجنا جميعاً، وكنت أشكوه إليها إذا فضل أختى عنى فى شىء.. وأغتنم فرصة وجوده فى القاهرة وأكلمها من أسيوط لأطلب ما أريد، وإذا بأبى يعود ومعه ما طلبت وأكثر، وكان من باب الانتقام يقول: «ايش تعمل الماشطة فى الوش العكر» وقد ظلت صلته بخالته هذه تقوى مع الزمن وكان لها فى حياته مكانة لا تمس.

تزوجت أختى ونحن فى أسيوط وحاول أبى أن يكون أبا وأما.. وأذكره وهو معنا فى المحلات لاتكاد أختى تشير إلى شىء حتى يشتريه، وكنا جميعا لا ندرى من أين نبدأ ففكر فى أن يلجأ لابنة

خاله «عبد الحميد بك أباظـه» وهـى زوجـة عمـه محمـد فـى نفس الوقت وكلفها بأن تقوم بشراء ما تحتاجه العروس، ولهذه السيدة في حياتنا شأن كبير فـإن ننـس لـن ننسـى وقوفـها مـع أبـى يـوم وفـاة والدتــى، ثـم لجوءنـا إلى بيتـها كلمـا ضـاقت بنـا الدنيـا وترحيبـــها واهتمامها بأمرنا ونحن في المدارس الداخليـة.. فقـد كنـا نخـرج مـن المدرسة إلى بيتها أيام الآحاد.. وكانت تذهب بنا مع ابنتها هيـام إلى السينما والمسـارح والحدائـق العامـة وكـان اليـوم يمـر كلمـح البصـر ولا نشعر إلا ويوم الاثنين قد حل فنذهب إلى المدرسة ساخطين.

واحتفل والدى بزفاف أختى احتفالا كبيرا.. جمع فيه أصدقاءه.. وأذكر أننا كنا نتفرج على الضيوف من شـرفة المنـزل، وكـان كـبراء مصر سنة ١٩٤٥ يملئون حديقة الربعماية علـى موائـد الغـداء وكنـت أرى أبى جميلا بين مدعويه.. وخيل إلى أنه ليس فى مصر كلها مـن هو أجمل ولا أكثر هيبة من أبـى وأعمـامى مـن حولـه.. وكـان عمـى «بابا عثمان» كما كنا نناديه شـديد التعلـق بوالـدى، شـديد الحـب لوالدتى؛ فقد كانت له بمثابة الأم فازداد عطفـه علينـا بعـد رحيلـها وتغلغـل فـى أمورنـا بقلـب كلـه حنـان وحـب.. رعانـا فـى طفولتنـا وتعـهدنا فـى شـبابنا، وأحبنـا بمـلء نفسـه، ولم نكـن نسـتطيع أن نجازيه على حبه إلا حبا وعلى عطفه إلا تعلقا، وكان لا يحيـد عـن الحق ولو سلطت عليه السيوف، وكنا على حبنا الشـديد لـه نخشـاه ونخافـه، ونعجـب بـه فـى نفـس الوقـت. رآنـا يوم زفـاف أختـــى

كالتائهين في الصحراء فأخذني وأخوتي بين ذراعيه وتلاقت قلوبنا. وتلاقت أدمعنا. عدنا بعد الفرح أخي وأنا إلى أسيوط، وقد كانت مشاجراتنا اليومية تقطع الملل الذى يعيش فيه أبي.. فقد كان أخي لا يحب أن يضيع وقت في الدراسة على الرغم من ذكائه، وكان يرجوني في امتحانات الفترة أن أخفي شهادتي حتى لا يسأل أبي عن شهاداته، وكنت أستنزف أمواله ومجاملاته حتى أخفي شهادتي أسبوعًا أو أكثر، ثم أذهب إلى أبي ليوقع عليها.. وبقي أخي يستعمل أسلوب التسويف هذا إلى الآن.

وكان لأخي صديق اسمه سمير ويصا، وهو ابن ألفي بك ويصا من أعيان أسيوط، واتفقا على الهروب من المدرسة وأخذا سيارة وذهبا بها إلى ديروط. وبعد دقائق علم المأمور بوجود ابن المدير فاتصل بأبي في مكتبه فقال له «ارسله ومعه عسكري» وجاء أخي وزميله مرتعدين ودخلا المدرسة بعد استئذان الناظر. وكان سيد بك روحه، وهو من الشخصيات التي لا تنسى بين رجال التعليم في ذلك الوقت. وما أن انتظم أخي في فصله حتى فوجئ بأبي أمامه. ولا ينسى أخي وزملاؤه جميعا كيف ضرب أمام الجميع فقد اعتقد أنه يستطيع أن يهرب بسيارة متى شاء بنفوذ المدير، ولكن نفوذ الأب كان أقوى وأوقع.

وحدث بعد ذلك أن صمم الناظر نفسه على طرد تلاميذ السنة الخامسة «البكالوريا» نهائيا. وأظن أن السبب كان خطيرا. غير أني

لا أذكره الآن، وصعق أولياء الأمور ووسطوا أبى لدى الناظر، وبعد مفاوضات ومحاولات جاء الصفح وعاد كل إلى سبيله ومنهم الآن أسماء معروفة.

خفف أهل أسيوط أحزان أبى والتفوا حوله. ومضت الأيام. وفكر أبى فى الزواج ثانية. وإذا بالخبر ينزل علىّ نزول الصاعقة. أين الشعر الحزين إذن؟ أين الوفاء؟ أين القسم الذى أقسمه وكتبه شعرا على قبر والدتى؟ تتابعت فى ذهنى كل هذه الأسئلة التى لا تتبادر إلا إلى أذهان أبناء الخامسة عشرة الذين لا يقبلون من الأوضاع إلا ما يناسب رغباتهم هم؛ وكنت حتى هذه السن أعتبر أن هذا البيت مانعاً فعليا يقف فى وجه أى تفكير فى الزواج:

سـألقاك لم يُشغل فـراغ تركتـه
ببيتـى ولم يمـلأ مكـانك مـن قلبـى

والغريب أنه عندما أعلن خبر زواجه أرسلت إليه سيدات من العراق وسوريا يستنكرون هذا الزواج ويعتبرن أن قلعة الوفاء للمرأة قد انهارت، ويلوحن له بديوان «أنات حائرة» ونشرت بعضهن مقالات فى مجلة «الرسالة» كلها لوم وعتاب، وكان يطلعنى على تلك الرسائل المشتعلة وكنت أبدى إعجابى بها.. خصوصاً وأنها تعبر عن رأيى الذى لا أجرؤ على الجهر به.

لم يكلمنا أبى فى موضوع زواجه. بل أرسل إلينا عمى، أو بابا أحمد. كما نسميه، وقد اختاره لهذه المهمة لسعة أفقه وحيلته وذكائه الوقاد، ولم تكن تختلف معاملته لنا عن معاملة أبينا، ولم تكن حقوقه علينا تقل عن حقوق أبينا، أرسله لنا ليمهد لنا الطريق، فإذا بأخوى يسكتان وإذا بى أناقش مناقشة عظيمة وأدخل في حوار لست على مستواه. وأخذ عمي يلاطفنى ويردنى إلى أن جمعنا والدى.. وكان رقيقا كعادته وقال «إذا كنتم غير راضيين.. فنحن مازلنا على البر» وأريد أن أسمع منكم أنكم راضون.. فأجابته أختى وكانت قد تزوجت إنها راضية، ولم أجب أنا.. فالتفت إلى وقال «قولى إنك مبسوطة» فلم أجب.. وكان هذا فى وقتنا يعتبر منتهى الجرأة والتحدى..

وانتهى الاجتماع وانتابتنى بعد ذلك نوبة من البكاء، ثم نوبة من الضحك العصبى وتبادلت على النوبات متعاقبة. لو قلت أكثر من عشر مرات لما كنت مبالغة.

وقد أشار أبى إلى هذا الموقف فى إحدى قصائده عندما قال:

وبنيات تخطرن على
رونق العمر وموشى صباه
قلن ما خطب أبينا بعدما
هصرت بين ذراعيه مناه

فبكاهـــــا.. وبكاهـــــا ومضى
مثـلا يضـرب فـى الدهـر وفـاه
يابنــاتى مـــن ذاق الهـــوى
قدســاً عــاد إليـــه فــارتواه
لــو إذا اقتنيـــه كـــدرا لصفـــى
عــن جديـد منـه قلبـى فأبـاه
يابنــاتى إذا القلــب صبـــا
وهــن العــزم وخــارت قدمــاه
فــإذا عوتـــب فـــى صبوتـــه
لّــج فيــها.. هكــذا الله يــراه

وتزوج أبى من أمينة صدقى ابنة إسماعيل صدقى باشا وهى سيدة لم أر فى الناس مثلها فهى ذكـاء متقـد، وسريرة نقيـة وقلـب حـان وخلق قويم. لم نطالبها بشيء وأعطتنا من نفسـها وقلبـها كـل شـيء. ولكن كل هذا لم يمنع سـوء اسـتقبالى لفكـرة الـزواج. فـى أول الأمـر. ومشـت بنـا الحيـاة فـى أسـيوط. ولم أكـن أريـد أن أرى الجوانـب الحسنة فى زوج أبى. ولو أن هذه الجوانب تنكشف أمامى يوما بعـد يوم. وكنت أبتعد عنها وألجأ لأبى فى كـل أمورى، ولعـل علاقتـى بأبى بدأت تقوى وتتأصل لذلك السبب. أتم أبـى فـى أسيوط روايـة العباسة. ومثلت فى دار الأوبرا. ودعاه الملك بعد أن شاهدها إلى قصر

عابدين مع الفرقة القومية ولجنة القراءة لتناول الشاى. وأنعم عليه برتبة الباشوية. وتبارى أهل أسيوط فى إظهار مشاعرهم نحو أبى بمناسبة الباشوية. فقد كان يدعى كل ليلة ليسهر عند واحد من أعيان البلد. واستمرت هذه الحفاوة شهرا على الأقل. ودعينا أنا وأخى عند عمدة أسيوط صمويل شنودة وكانت السهرة فى قصر له حديقة مترامية الأطراف لم أرلها آخرا. وامتدت المائدة على النجيل. وكانت الأطباق التى بها ألوان الطعام مضاءة بالكهرباء. والمائدة عبارة عن أنوار تتلألأ، وكأنها أحجار كريمة مختلفة الألوان. والحقيقة أن هذا المنظر بهرنى وأنا فى هذه السن الصغيرة. ولم أجرؤ أن أسأل كيف يضاء الطعام ولم أظهر الدهشة وكأنه شىء طبيعى بالنسبة لى. ولم أنس هذا المنظر إلى اليوم.

كنا نحضر عرض رواية العباسة كل ليلة حتى حفظنا نغمات أصوات الممثلين فى جميع المواقف.. وكانت أختى تعد الأماكن الخالية فى الصالة وتعتبر المقعد الخالى إهانة شخصية لها. والحقيقة أن الجمهور كان يحب الشعر ويهتز له. بل كان أحيانا يكمل الأبيات مع الممثلين. ففى «قيس ولبنى» موقف لابن أبى عتيق يهدئ من ثائرة «قيس» وهو يحاول أن يعيد إليه لبنى:

اصطنع يا قيس صبرا
إننى أعرفهنه

إن للنســـوة جــــهلا
وهـــوى يملكهنـــه
خلـــق ركـــب فيـــهن
فواتـــــى طبعهنـــه
لا تـــرع ممـــا تراه
وتنظـــر رشـــدهنه
طـــابع النســوة فـــأعلم
يتمنعـــــــــــن
فيكمـــل الجمهـــور
« وهـــــــــــه »

وتكرر ذلك في كل مرة شاهدت فيها « قيس ولنبى ».. ولا أنس يوم افتتاح « قيس ولبنى » ظل أبى ملازما الفراش ملتفا بجميع الأغطية الموجودة فى المنزل، فقد انتابته قشعريرة.. من شدة الارتباك فهو ينتظر في هذه الليلة حكم الجمهور على أول عمل له يظهر على المسرح وكان أخواه وأعمامه يهدئون من روعه، ودقت الساعة وذهبنا مساء إلى المسرح وكانت الأنوار تتلألأ، والسيدات بملابس السهرة الفاتنة، والجواهر الثمنية يزدن دار الأوبرا جمالا على جمال.

ومثلت الرواية وقوبلت مقابلة حارة، وأظهر الناس إعجابا بالشعر وإحساسا صادقا به.. وبكت السيدات إشفاقا على لبنى حين قالت :

يــارب هــذا مــاقضيت فليـس لى
فـى العقـم مـن ذنــب وأنــت عليـم
زعمــوا قضــاءك تهمـــة فتــألبوا
هـــذى تعـــيرنى وذاك يلـــوم
يــارب تعلــم أننــى صانعتـــهم
والقلـــب منـــهم مثخـــن مكلـــوم
وبغـوا فلمـا قلـت يــا نفسـى اصـبرى
غضـب الظلـوم.. وعوتـب المظلـوم

ونجحت روايــة «قيـس ولبنــى» وذهبـت القشـعريرة عـن أبـى.. ولم يحاول أن يخفى فرحته فقد كـانت عينـاه تفيضـان بـها، ولكـن تواضعه ورقته لم يفارقاه، لحظة واحدة.

مخرج الرواية

وأترك الأستاذ فتوح نشاطى يتكلم فى كتابـه (خمسـون عامـا فـى خدمة المسرح) ويقول: ولأول مرة فى تاريخ المسـرح الشـعرى تضـرب رواية «قيس ولبنى» كل الأرقام القياسية فى النجاح الأدبى والمادى. فقد مثلت أول الأمر شهرا ونصفـا علـى التـوالى، ودرت علـى الفرقـة أكبر الإيرادات. ثم أعدنـا تمثيلـها بعـد ذلـك عشـرات المـرات. وقـد قدمت إدارة الفرقة للمخرج والممثلين والممثلات هدايا نفيسـة لمناسـبة نجاح الرواية العظيم. ولما بذلوه من جهود ممتازة فى القيام بعملهم كما قال الأستاذ محمد حسن مدير الفرقة فــى حديـث صحفـى. هـذا

عدا ولائم شائقة قدمت لنا خلالها ألوانا من الطعام الفاخر وعلى رأسها العدس الأباظى المشهور.

ويستمر الأستاذ فتوح قائلا فى الكتاب نفسه : كتبت مجلة آخر ساعة المصورة فى صفحة عالم الفن هذه الحادثة التى إن دلت على شيء فعلى تواضع مؤلف قيس ولبنى «ومن ظريف ما حدث فى حفلة افتتاح رواية قيس ولبنى» أن الجمهور أراد أن يرى المؤلف ويحييه. ولكن عزيز أباظة وهو رجل متواضع حيى خجول أبى أن يظهر على المسرح ليرد تحية الجمهور. وانكمش فى البنوار الأول فى ركن منزو لايراه منه أحد. ودبر محمد حسن مدير الفرقة مؤامرة لطيفة مع الأستاذ شكرى راغب مدير مسرح الأوبرا لإظهار عزيز أباظة على المسرح على الرغم منه. فطلب إليه أن يذهب بعد الفصل الثالث مباشرة إلى المسرح ليهنئ الممثلين على نجاحهم. وأجابه عزيز أباظة إلى طلبه ولكنه لم يكد يصل إلى منتصف المسرح حتى ارتفعت الستار. فضربت معه لخمة. ووقف مبهوتا دقيقة أو دقيقتين لا يدرى ماذا يعمل والجمهور يصفق ثم خرج من المسرح عدوا.

وبدأ بعد ذلك فى كتابة مسرحية شعرية عن «ديك الجن» وكان لايزال يملى علينا الشعر ولم يكن يكتب رواياته بخط يده بعد ، وكان بعد عودته من عمله يخلع ثياب الخروج، ويلبس ثيابه المنزليه.. وبعد تناول غذائه يجلس على كرسيه الخاص به، وإلى جانبه منضدة عليها أقلامه وأوراقه، وعلى الأرض وحوله قدميه

يضع كتبه ومراجعه، ثم يمسك بحاجبه الأيمن بأصبعه ويملى علينا الشعر.

وكلما تذكرت هذه الصورة خيل إلى أنها لوحة جميلة تمثل شاعرا مرهفا يكتب وسط عائلته بهدوء ودون ادعاء.

وقد أتم فصلا كاملا فى رواية.. «ديك الجن» وأذكر بعض أبياتها :

اخطرى ياظبية القاع
وياعود الأراك
أنا يابنت السنا والمجد
كالبدر أراك
عز بيت قد تبناك
وملك قد نماك
وتسامت شرفات
شع منهن سناك
خصك الله بحسن
لم ينل منه سواك

وأخذنا نقرؤها فى غيابه ونقلب فيها حتى أضعناها، وجاء فى ميعاده يسأل عن الكراسة فإذا بنا نرتبك ونتلجلج، ونجد فى البحث عنها ونحن نعلم أننا لن نجدها وأظنه رأى الخوف فى أعيننا ففهم وسكت، ولم يقس ولم يعنف حيثما كان يجب أن يقسو وأن يعنف.

ثم فكر فى كتابة مسرحية شعرية عن معاوية، وكان رأيه أن المخرج سوف يجد مجالا واسعا للإبداع لأن حكم معاوية كان يتسم بالفخامة والإبهار.

وفى مقابلة مع الدكتور طه حسين كلمه عن معاوية وقال له إن الفكرة قد تسلطت عليه تماما.

فقال الدكتور:

- انصحك يا عزيز ألا تفعل، فمعاوية شخصية غير محبوبة، إذا جاملته ثار عليك البعض، وإذا ظلمته ثار عليك البعض، وفى الحالين لن تكون منصفا.. فعدل أبى ولم يتردد.

كان الخط مجرم الصعيد الذى دوخ الأمن فى عنفوانه عندما كان أبى مديرا لأسيوط وكان من المستحيل القبض عليه. فقد كان يحميه بعض الأعيان، وكان يخشاه الناس فلا يبلغون عن مكانه، بل ويسترون عليه. فقرر الحكمدار أن يقبض على زوجته ووالدته حتى يضغط على الخط ويسلم نفسه، ولما علم أبى ثار وغضب، وكان فى موقفه هذا إنسانا وشاعرا. وقال للحكمدار فى حدة:

- إن هذا التصرف ليس من الإنسانية ولا من الشهامة فى شىء. إن واجبنا أن نصل إليه بالقوة لا عن طريق النساء اللائى لا حول لهن ولا قوة.

وأخلىسبيل المرأتين، وتمكنوا من القبض عليه بعد شهور بالطريق السليم. بخطة محكمة، وكمين - وقوة ضخمة من البوليس.

وأذكر يوما ونحن لانزال فى أسيوط أن جاءت ناظرة المدرسة الثانوية التى كنت بها لزيارة أبى، فرحبت بها وبقيت معهما ظنا منى بأن من الواجب على أن أبقى. وبعد قليل قال والدى: دعينا وحدنا قليلا فدهشت لدرجة أننى كذبت أذنى، ولم أتحرك من مكانى فأعاد طلبه، فخرجت وكلى حيرة فيما عسى أن يكون سرا بين الناظرة وبين أبى، ولم يهدنى طول تفكيرى إلى شىء. ولكننى علمت بعد ذلك من إحدى المدرسات أن أبى قد قرر أن يدفع تكاليف السنة الدراسية لاثنتين من زميلاتى فى الفصل، لأننى قد عوفيت من دفعها ولم يكن يريدنى أن أعرف عن ذلك شيئا، ولكن يا أبى الحبيب لو أنى قد علمت.. لما استطعت إلا أن أكون ابنتك.

وفى يوم كنت جالسة فى حجرتى أستعد لدخول امتحان فى اليوم التالى وإذا بمن يدخل على ويقول لى إن أبى يطلبنى، فغضبت، لأنهم يعطلون استعدادى للامتحان، ولكننى ذهبت طبعا على عجل وجدت أبى جالسا فى مكانه المعهود وعندما رآنى قال لى: لقد أرسلت فى طلبك لأسمعك ما كتبته الآن فى رواية الناصر فاجلسى واسمعى فجن جنونى من الغيظ، ولكننى كتمته فى أعماقى وجلست على مضض أستمع إلى الشعر، وعقلى كله فى دروسى. وزاد من غيظى أننى لا حول لى ولا قوة، وأننى لا أستطيع إلا أن أبقى وأن أسمع، وعندما انتهى أبى من قراءاته أسرعت إلى غرفتى وأخذت أبكى..

ويحى!! ألم أكن أعلم وقتذاك أن أبى ليس ككل الآباء؟ وأنه حمل على كتفه عبء المسرح الشعرى بعد شوقى، وأنه آلى على نفسه أن يحافظ على لغة القرآن رغم كيد الكائدين!! ألم أكن أعرف أن كثيرا من أساتذة الجامعة والمتخصصين كانوا يتسابقون إلى دراسة أعماله ويتلهفون على معرفة شيء عن حياته؟ كيف كان يكتب.. كيف كان يعيش وكيف كان يعامل أولاده وكيف وكيف؟؟ ألم أتنبه إلى أننى كنت إلى جانب فنان كبير؟ ألم أكن أشعر برضاء الله على حين أوجدنى في كنف شاعر مرهف الحس عنده من الرقة أكثرها رقة؟ لعلنى اعتقدت أن الناس جميعا على شاكلته!! أو لعلنى كنت مثل باقى الناس الذين لا يقدرون اللاصقين بهم حق قدرهم!!

إلى أن كبرت ورأيت وفهمت وقارنت وأحسست، ولمست نفسى والإنسان ما أكفره!

وأذكر أننى ذهبت فى رحلة إلى تونا الجبل مع مدرستى، واجتمعنا فى فناء المدرسة فى الصباح الباكر وأخذنا معنا غذاءنا لأننا كنا سنقضى اليوم بأكمله فى الرحلة ووصلنا إلى تونا الجبل فى محافظة المنيا. وبعد أن شرح لنا المدرسون ما شاهدناه من الآثار هناك حان ميعاد الغداء، فجلسنا على الرمل وهممنا بتناول غدائنا، وإذا بمن ينادينى ويطلب إلى أن أذهب إلى الاستراحة القريبة منا حيث يوجد بعض أصدقاء أبى. ولما ذهبت رأيت أصدقاء أبى جالسين على مائدة أنيقة وطلبوا منى أن أنضم إليهم. فتحرجت، لأننى أفضل أن أبقى مع زميلاتى، ولكننى تشجعت ورفضت برفق. وشكرت بقدر ما

استطعت وعدت إلى زميلاتى دون أن أقول كلمة. ولكنى خشيت أن يغضب أبى لأنى رفضت دعوة أصدقائه. وعندما عدت إلى أسيوط وسمع منى أبى قصتى

قال على الفور:

- بل كنت أغضب لو أنك تركت زميلاتك يتناولن غداءهن على رمال صحراء تونا الجبل، وبقيت أنت فى الاستراحة الأنيقة ثم ماذنب زميلاتك إذا كان لأبيك أصدقاء كثيرون، وله علاقات واسعة.. ماذنبهن حتى تعاملى أنت معاملة خاصة من أجل خاطر أبيك؟..

وقبل أن أترك أسيوط. تلح على تلك الحادثة الصغيرة. فقد كنا دعينا إلى فرح وجاءت صديقة لى لتذهب معنا. فإذا بوالدى بعد أن حياها ينادينى ويقول لى: «أرجو ألا تلبسى شيئا من حليك فإن صديقتك لا تلبس حليا بالمرة فلا تضايقيها» فقلت: «حاضر يا بابا» ولكنى لم أقل إننى أنا الأخرى لم أكن أملك من الحلى شيئا.. وكبرت معى هذه اللفتة الصغيرة.. ولم أجد فى الناس هذا الشعور المرهف الرحيم. وكلما رأيت من مكنته الحياة من الظهور بمظهر الغنى والأبهة مع من لم تمكنه الحياة من ذلك خارجين معا فى اجتماع واحد وددت لو أنهم كانوا أقل أناقة وأكثر رحمة.

ترك أبى أسيوط وترك الوظائف الحكومية ودخل مجلس النواب ثم مجلس الشيوخ، .واستقر بنا المقام فى القاهرة ودخل فى مجلس

إدارة شركات متعددة. وغير مجرى حياته.. وكان أخوه أحمد يقول «لقد دخل عزيز باشا الوظيفة فنجح فيها وأحبه الناس أينما ذهب ودخل الشركات ونجح فيها وعقد صداقات قوية مع الأجانب الذين عمل معهم ودخل ميدان الأدب ونجح فيه ورسخت قدماه فقد نجح في كل ميدان دخل فيه».

كان أبى سعيدا عندما تقدم زوجى ثروت أباظة لخطبتى مع أنه كان لايزال طالبا فى كلية الحقوق، وحدد الزفاف بعد امتحان الليسانس وحدث أثناء تلك الفترة خلاف بين أبى وزوجته.. وأظهرت بلا تحفظ مساندتى لها، وإذا وقفت الآن وقفة هنا، لوجدتنى كنت مخطئة فى تقديرى للموقف، فقد كنت فى الثامنة عشرة من عمرى، وكنت أعتقد أن مشاعر الناس يجب أن تخضع للقوانين وأن حياة الناس يجب أن تسير فى فلك مرسوم، وكأنى أردت أن أخلع البيوت من واقع الحياة ودفاعتها.

وعز على أبى موقفى منه، وغضب منى وتجاهلني إلى أن جاء يوم زفافي ولبست الثوب الأبيض ونزلت على السلم، وإذا به يقابلنى فى وسطه ويأخذنى بين ذراعيه ويقبلنى باكيا.. وغسلت دموعى ماقضيت فى تجميله ساعات وساعات، وأقيم الفرح فى بيت دسوقى باشا أباظة والد زوجى، وبدأت الزفة وهى فى نظرى الدقائق العصيبة التى تمر بها كل فتاة.. إنهم يقولون إن هذه الدقائق

لا تحسب من العمر، وهى فعلا لا تحسب من العمر؛ لانها تخرج الفتاة من الشعور بالحياة.. فأمام كل هذه العيون الفاحصة التي تنظر في لحظة واحدة إلى شخص واحد لايسعها إلا أن تكف عن الحياة، وبينما أنا خارج الحياة نفذت إلى عيون أبى الحانية وهى تتابعنى، وبجانبه أم كلثوم واستطعت أن أسمع أغنية الزفاف التى سمعتها أجيال من قبلى وستسمعها أجيال من بعدى.

وذهبت إلى بيتى، وكان إذا زارنى أبى انتظر في الصالون وأرسل في طلبى، فى الوقت الذى كنت أفاجأ فيه ببعض الضيوف فى غرفتى.. ولن أقول إن زواجى لم تعترضه الصعوبات، فقد كان كل منا يحاول أن يثبت وجوده، فأثبت غباء وغرورا.. أخذا من عمرنا سنوات، وكان أبى إذا تدخل فبناء على دعوتنا، واضطر اضطرارا لأن يكون عادلا فإن كان الحق معى ساندنى علنا ولم يتحرج، وإن كان على شعرت بقلبه يساندنى وإن اشتد على بالقول أو انطلق لسانه بغير ما أريد.. ولقد كان شاعرا حتى فى أحكامه.. كان حانيا ولكن فى كبرياء.. لم أسمعه فى حياته ينطق بكلمة تجافى الذوق.. أو تجرح الأذن - فإذا نفرت الآن من بعض الألفاظ الغليظة التى تجرى على ألسنة الناس بسهولة سخر منى زوجى واتهمنى أننى أريد من الجميع أن يتكلموا بالشعر، ولكن عذرى أننى نشأت فى بيت شاعر عف اللسان.. رشيق اللفظ رحيم القول.

وفى أول حياتنا الزوجية نظم معنا أبى ميزانية البيت.. وأظنه كان فى هذا الموقف أرحم بزوجى، فأفلت من يدى زمام الأمر شهورا.. وكم لجأت إليه، وكم استنجدت به.. وكنت إذا ذهبت إليه وأنا معتنية بشكلى ومظهرى، أجابنى إلى طلبى بسرعة وهو راضى النفس متهلل الوجه.. وكنت أعرف ذلك وأستغل هذا الضعف فيه..

لم نهتم بأن نصور صورة تذكارية بملابس الزفاف، وكدنا أن ننسى - لولا أن أبى كلمنا يوما فى التليفون قائلا.. إنه حدد ميعادا مع «ارمان» المصور المعروف فى ذلك الوقت وأنه سيقابلنا هناك.. وذهبنا ووجدناه فى انتظارنا.. وبقى معنا إلى أن انتهى المصور من تحريكنا كالشطرنج بنفس الطريقة التى يحرك بها كل من يقع بين يديه، وتكون النتيجة صورة تذكارية.. ولكن لا حياة فيها.

كنت جالسة مرة مع أبى وسأل زوجى عن مفتاحه فوصفت له مكانه، فابتسم أبى وقال «أتتكلمان كزوج وزوجة ولم يمض على زواجكما أسابيع» وكانت نبراته فرحة مدللة، وكنا نسكن قريبا منه.. وكنت أذهب إليه كل صباح. ثم وجدنا شقة فى نفس العمارة التى يسكنها فأنتقلنا إليها.. وأصبحت أزوره صباحا ومساء، وأحيانا وقت الغداء، وكنت إذا قللت عدد الزيارات اليومية تملكه العجب.. وإذا تأخرت يوما ساوره القلق، وحينما انشغلت بتربية الأطفال كان

هو الـذى يـأتى ويجلـس إلى – ويلاعبـهم، ويتقـرب إليـهم بـالوعود فقط. ورغم حبه لهم.. كان يرى أن ما يقال عن حب المرء لأحفـاده أكثر من حبه لأولاده شيء لا يقبله العقـل.. ولا يقـره القلـب.. كـان يعتبر نفسه المسئول الوحيد عن أولاده.. فهو يتحمل عـبء المـرض، والعمليات الجراحية.. واستقبال الأطفال أيضا..

وكان عنده ضعف شديد لأختـى فـهى أول الفرحـة كمـا يقولـون، وهى التى شهدت وفاة أمنا حين كنت وأخى بالربعماية، وكان يحلو أن يعلن تفضيله لها ويبالغ فى ذلك أمامى، فكنـت أثـور أو أصطنـع الثورة والاحتجاج والواقع أنى لم أكـن أصـدق، فأنـا أعـرف مـن أنـا عنده.. ولكننى أعرف أيضا أنه يمازحنى.. وكان لابد لى أن أمازحـه وأدعى الغضب.. والحقيقة أن حب أختى له حب بـدأت قوتـه منـذ طفولتها حتى أنها كانت تحبه أكثر من حبها لأمـى.. وتبـدى ذلـك ولا تخفيه، وكان يعاملها برقة وحنان ومجاملة فزاد تعلقها به. ولعل حبها له هو أقوى حب فى حياتها، إذا استسمحنا الزوج والأولاد.

وكنت إذا طلبت منه شـيئا ظللـت ألح وألح حتـى يجيبنـى إليـه واعتاد منى على ذلك، بل إنه كان يقول لأصدقائه المقربين إلى قلبه.. إنه يحب تلك المناقشات وذلك الإلحاح، بل ويرفـض خصيصـا وهـو ينوى الإجابة ليطيل المناقشة وكنت أفتـح بـاب المرافعـة ولا أغلقـه، وكنت أقول له إن مركـزى الاجتمـاعى يفرض علـى الكثير، فيقـول

ساخرا «وأين هو هذا المركز الاجتماعى؟» فأجيبه يكفي أننى ابنتك وهذا يكلفنى كثيرا.

وكما كان يحب هذه المناقشات.. فقد كنت أحبها بدورى وأشعر أن الأرض ثابتة تحت أقدامى وأننى أستطيع أن أتحدى به الناس والأيام، وإنى أشهد - أنه غمر أولاده بعطفه وبحبه وبجاهه وعاش حياته لهم، وقد كتب مرة يصف مشاعره فى أوتوجراف لى:

وهبتك قلبا مع شقيقيك عامرا
بأغلى الذى عندى من الحب والعطف
وأسكنتكم احناءه منزلا لكم
فلو قد صددتم عنه أسكنتم طرفى
وأصفيتكم من حبة النفس رحمة
ويسعد نفسى أنها لم تزل تضفى
وأبدى حنو الوالدين وأتقى
فأخفى.. فينهل الحنو الذى أخفى
إذا ما بذلتم لى جزاء يضىء لى
بقية أيامى. فمن ساكب العرف
وإن كانت الآباء كهف فروعهم
فكهفكمو حبى . وحبكمو كهفى

أما علاقاته بأصدقائه وأقاربه فكانت أساسها الرحمة والود إذا قصد لبى ونسى الأمر. ذهبت إليه أطلب خمسمائة جنيه لأحد أقاربى. كان عليه أن يدفعها فورا وإلا تعرض للقضاء، ولم يتركنى أبى أكمل قصتى الطويلة، وإنما أعطانى المبلغ بلا تردد، وتكرر منى الطلب فى هذا النوع من المشاكل، وتكرر منه العطاء إلى أن قال لى يوما ضاحكا: «هو إنتى مستخسرة فىّ فلوسى؟» ولا يتردد كالعادة. حكى لى أحد كبار ممثلينا المشهورين أنه ذهب وهو فى مستهل حياته الفنية إلى أبى وكلمه عن رغبته فى أن يدخل عالم الإنتاج، وكان هذا الممثل فنانا صادقا، وأحس أبى أنه يحتاج إلى مساندة لكى يكمل مشروعه، فكفاه مئونة الطلب وعرض عليه هو أن يساعده، وكانت طريقة عرضه فيها أبوة، وفيها حنان، حتى خيل لهذا الفنان أنه إنما لجأ إلى أبيه. وتم المشروع وظهر الفيلم ونجح ورد الممثل المساعدة ولم أسمع من أبى كلمة واحدة عن هذا الموضوع، وكنت دائما أعجب بأبى لأنه يحترم إنسانية الإنسان.. إذا طلب أحد منه وساطة ما، والاه هو بأخبارها حتى لا يتحرج الطالب ولا يشعر أنه يضايق أحدا، كانت رقته تفوق كثيرا الدرجة المعتادة. كان يتصرف دائما بطريقة ناعمة إنسانية لا يفهمها الكثيرون..

وقص على مدير بنك مصر سابق، إنه عندما كان مديرا للبنك ذهب إليه أبى ليضمن صديقا له من الشرقية فى اعتماده، وكان المدير يعلم أن هذا الصديق حالته المالية مرتبكة.. ولن يستطيع

السداد، فحاول أن يؤجل الضمان، فرفض أبى، فاضطر المدير أن يخبر أبى بالحقيقة فقال أبى:

«أنا على كل حال ضامن ضامن «فأجابه المدير» إنت ضامن ولكنك ستضطر إلى الدفع نيابة عنه» فأجاب «لقد نشأت فوجدت عائلة هذا الصديق أصدقاء لأبى..» ورأيتهم وأنا طفل فى سلاملك الربعماية، فكيف أتخلى عنه، أنا ضامن ومستعد أن أدفع هذا الدين ولم يسدد الصديق ودفع أبى. لم ينس مدير البنك أن يمازح أبى ويقول له: ألم أقل لك يا باشا؟ فقال أبى «لقد فعلت ما يجب على أن أفعله» ومرت سنوات خمس وجاء أبى إلى مدير البنك مبتسما وقال: «لقد رد الصديق المبلغ وأرسل لى صندوقا من الكمثرى من الحديثة التى ساعدته على إنشائها «وطوال السنوات لم يتوان عن رد غيبة الصديق الذى اعتقد الجميع أنه اختفى إلى الابد».

دخلت مرة محل تحف صينية بجانب سينما أمير بالإسكندرية صاحبه رجل صينى مسن.. وسألته عن ثمن ترابيزة أعجبتنى فقال «لك أنت بالسعر الذى تريدينه.. وتدفعين فى الوقت الذى يناسبك.. فدهشت ولكنه قال: «إنك قد لا تعلمين أفضال والدك على فلقد دخل يوما محلى ووجدنى واجما حزينا فسألنى عما بى. فقلت إننى محتاج لمبلغ من المال لمدة شهر، فقد فاجأنى طارئ. ولا أجد حلا لمشكلتى – فإذا به يخرج دفتر شيكاته ويعطينى المبلغ بلا

أى ضمان، وهو لا يعرف غير المحل مكانا لى، فإذا أغلقته أو سافرت فأين له أن يجد مكانى.. وقد رددت المبلغ ولكننى لم أنس الجميل.. فأجبته أن هذا شىء طبيعى، وأنا أعلم أنه ليس كذلك فى رأى أغلب الناس، واخذت الترابيزة.. ودفعت ثمنها على عدة أقساط.

سافرت مرة مع أبى إلى الإسكندرية وكان يجمعه ود بصاحب محل بيع فضيات معروف اسمه «الحاج رشاد» وكان الحوار يدور بينهما عن الدين والأدب. اشترى أبى واشتريت أنا وقلت لأبى:

المبلغ كبير جدا ولن أستطيع أن أدفعه.. فأرجوك أن تدفعه لى ثم تخصم منى مبلغا أول كل شهر. فوافق أبى ونفذنا الاتفاق فعلا فى الشهر الأول، ثم نسى هو وتناسيت أنا ومرت الشهور وذهب أبى إلى الإسكندرية وتذكر الدين وجاء يحاسبنى فقلت:

– بل دفعت.. وإن كنت نسيت فما ذنبى أنا؟ وهل تحتمل ميزانيتى أن أدفع الدين مرتين؟ فسكت.. ولكننى بعد فترة قلت له ضاحكة:

– إننى لم أدفع شيئا.

– فأجاب غاضبا

– وأنا لن أتعامل معك بعد ذلك، وقد عرفت أخلاقك بهذا المبلغ ولكن التعامل تكرر بنفس قلة الذمة من ناحيتى.. وبنفس طيب

الخاطر من ناحيته، ولما ذهبنا إلى العمرة.. وكان قد دعانى مع أختى وزوج أختى لهذا السفر قلت له :

- إننى دعوت لك بالصحة وطول العمر عند النبى.. ولكنى استأذنته فى الاحتيال عليك أنت فقط..

وكنا قد أبدينا رغبتنا فى أداء العمرة، فظل يشجعنا ويسألنا يوميا عن إجراءات السفر.. وعن الاستعداد للسفر، وكان تحمسه يعادل تحمسنا أو يزيد عنه، ثم قرر أن تكون رحلتنا على نفقته.. وكنت أتعجب من شدة حماسه، ولكننى عرفت بعد ذلك أن فريضة الحج كانت أغلى أمنية عند أمى ولم يمكنها المرض ولا العمر من أدائها، فسارع إلى رغبتنا يلبيها لعله بذلك يرضيها ويرضينا، ثم أرسل للأمير عبد الله الفيصل.. ولست فى حاجة أن أقول ما وجدناه من حفاوة وتكريم.

كنت وأبى دائمى النقاش، وكان دائما يختلف معى، فهو رواح واسع الأفق ذهنه قابل للحركة والتجديد - إلا فى الشعر، وكان يتهمنى بضيق الأفق والرجعية فكان يرى أن الإنسان إنسان وأنه معرض للخطأ وأن الظروف قد تدفعه إلى حيث لا يريد أن يصل.. وكان يحب الجمال ويغفر للمرأة الجميلة الكثير. وكنت أرى أن الإنسان يجب أن يكون أقوى من الظروف وإذا تساهلت بالنسبة للرجل فلا أسمح للمرأة بالخطأ.. وكلما زاد جمالها زادت قسوتى

عليها لأنها يجب أن تحمى نفسها من غرور نفسها ومن الطامعين – ثم إن الزوج الخائن يمكن أن يسامح أما الزوجة فلاتوبة ولا غفران ولا نقاش – فالمرأة تخون نفسها وتخون أولادها وتخون الاسم الذى ائتمنت عليه، وإذا حاولت أن أتخلص من رجعيتى، وحاولت أن أكون مرنة حتى يحتملنى أبى وفرضت أن حبا دهم الزوجة وهى فى عقر دارها، فلتكتف إذن بهذا الشعور الجميل، فلا كلمة ولا لمس ولا خيانة وكان يستمع إلى مبتسما ويقول لى: «كان يجب أن تولدى فى القرن الماضى».

ذهبت معه يوما لنزور شقيقتى فاستقبلتنا وهى ترتدى روب زوجها وشبشبه، فانتقدها أبى فى رحمة ولطف، ولكنه لما خرجنا أبدى شعوره بالضيق وقال: «إنه ليس من حقها أن تبدو أمام زوجها هكذا ومنذ ذلك اليوم ظل يشترى لها من كل بلد عربى يزوره أجمل العباءات وأغلاها ثمنا لتكون كاملة الزينة فى بيتها، وكانت أختى لا تطلب شيئا أبدا.. كان هو الذى يسألها ويلح فى السؤال.. بل كان يسألنى إن كانت فى حاجة إلى شىء وكان هذا يثير فى نفسى الغيرة فكنت انتقاما منه أخترع الطلبات وأبالغ فيها، فيأتى بها دون تردد – ثم أختطف الفرصة وأقول له «يجب أن تعدل بيننا» وأطالبه بالمثل.. فيضطر إلى العدل اضطرارا.

قلت إنه كان يحب الجمال، وقد كانت لنا صديقة شابة يفوق جمالها كل وصف وكان أبى شديد الاهتمام بها، وكان يريدنى أن

أهتم أنا أيضا ولكننى رفضت هذا العرض بشدة، لأسباب تعرفها الزوجات وقلت له.

– والله لو لم تكن هذه الصديقة بهذا الجمال لما بلغ اهتمامك بها إلى هذه الدرجة فأجاب مبتسما ومداعبا.

– «أنت ماعندكيش إنسانية دى عيانة ومحتاجة لرعايتى واهتمامى» والنتيجة أن إنسانية أبى كانت تثير حنقى على تلك الإنسانة الجميلة، وكما كان ضعيفا أمام الجمال.. كان ضعيفا أمام أبوته. ضعفا يخفيه حينا وينهل منه أحيانا، فقد خيل إلى يوما أننى أصبت بمرض خطير – لا علاج له ونسج خيالى ما شاء له أن ينسج حتى كدت أجزم بالأمر، فأصر أن يذهب معى إلى الطبيب ولم يمنعنى هلعى أن أشفق عليه وأن أثنيه عن مرافقتى، فقد قدرت أن جزعه سيكون أعمق من جزعى، وأن ألمه سيكون أكبر من ألمى، إنها المشاعر التى لا يجرؤ أن يحس بها الإنسان إلا لوالديه، إنها المشاعر التى إذا فقدناها اختل ميزاننا ومادت الأرض تحت أقدامنا، ولكن يكفى أننا شعرنا بها يوما، وطمأننا الطبيب وزال عنا الخوف.

أما عزيز أباظة الزوج، فقد احترم المرأة وقدرها، وأعطاها حقها من الحرية وعاملها معاملة الند للند رغم أنه من مواليد ١٨٩٨، ولم أره مع أمى إلا والاحترام قائم بينهما والحب يشع من حولهما،

ورأيته يقدر زوجته الثانية يجلها ويحمل لها أصفى الود وأصدقه، فقد رعته ورعت أولاده وجمعت شمل بيته بعد أن كان قد تصدع. وقد أكرمه الله ولم ينشأ بيننا وبينها خلاف كما يحدث عادة، وكنت أقول له: «إنك لم تذق طعم هذه النوع من العذاب» وهو عذاب فعلا لمن هو فى مثل رقته.. وإنى أحمد الله وأحمد زوجته لأنها لم تكلفنا هذا العناء، فقد أحببناها لأنها اختارت أن تكون أما لنا.. اختارت راضية ما تجبر عليه الأمهات إجبارا.. اختارت هى فكان حقها علينا أكثر من حق الأم وأكثر من حق الرحم، وقد وضعت هى وإخوتها تحت الحراسة، وفى ضربة عشواء تغيرت أقدار الناس وتحملوا الظلم بكرامة وثبات، وليس كالظلم يهد كيان الإنسان ويزلزل إيمانه.. ولقد عرفتهم صغيرة وكبرت بينهم ورأيت بيوتهم تستقبل الغنى وتستقبل الفقير بنفس الحفاوة وبنفس التكريم.. وأشهد أنهم تمتعوا بما حباهم به الله من مال وجاه، ولكنهم أسعدوا الناس وأغاثوا المكروبين.

وأشهد لزوجة أبى بأنها لم تبخل بمالها ولا بصحتها فقد كافحت الملاريا فى الأقصر سنة ١٩٤٣ والحمى الراجعة فى أسيوط سنة ١٩٤٥ وبنت بتبرعات الأهالى فى أسيوط مستشفى من أكبر المستشفيات فى مصر. وفى مصر القديمة جعلت من مستوصف صغير مستشفى اعتبر فى ذلك الحين وحتى الآن من أعظم المستشفيات،

وكان به أحسن الأطباء واكفأ هيئة تمريض وكان مديره الدكتور مصطفى الشربينى الجراح الشهير.

وقد يكون مثل أولاد إسماعيل صدقى باشا كثيرون ممن فرضت عليهم الحراسة، ولكننى أتكلم عنهم بالذات لأننى خالطتهم وعرفتهم حق المعرفة، وقد هاجر عادل صدقى إلى كندا وهو يقترب من الخمسين ولاقى من المتاعب والهوان مالاقى إلى أن وجد عملا يناسبه، ولقد فضل المتاعب على الشعور بالظلم وفضل الغربة فى كندا على الغربة فى مصر.

وقف أبى إلى جانب زوجته، وكان زوجا مسئولا وأخا حانيا، وشريكا دمثا رقيقا ولكن لم تحتمل زوجة أبى الشعور بالظلم وقام صراع بينها وبين نفسها أدى إلى اضطرابات عصبية تسببت فى إصابتها بانسداد فى شرايين الساقين، وتقرر أن تجرى لها عملية فى لندن. سافر معها أبى واصطحبنى معه. واستغرقت العملية أربع ساعات كاملة، وقبيل العملية تحدث الجراح عن خطورة الحالة. وقال إنه ليس متأكدا من نجاح العملية.. وإنها قد لا تستطيع أن تسير أكثر من خمس دقائق متتالية، وطلب منها أن تكتب أنها قد أحيطت بالنتائج علما، وأنها قد قبلت بمحض إرادتها إجراء العملية، وأحببت الكذب حينئذ، ووجدته أرحم أحيانا بالناس من الحقيقة، وأما المريضة فكانت ثابتة هادئة وأما أبى فقد حاول أن

يخفى قلقه - وأن يكتم اضطرابه، وأما أنا فقد شعرت بجسمى يتخبط بعضه فى بعض، وأحسست بقلبى يترنح فى صدرى، ومرت العملية بسلام وكانت النتيجة أحسن بكثير مما قدر الجراح، وبقى أبى إلى جانبها شهرا بأكمله يحنو عليها ويجاملها حتى كادت الغيرة أن تدب فى قلبى، وبعد أن تماثلت للشفاء كنت أخرج مع أبى لنشاهد المتاحف والمسارح، وفى يوم ذهبنا معا إلى السينما، وبعد انتهاء العرض أمسكت معطفه بكلتا يدى ووقفت وراءه لألبسه إياه، وإذا بنظرات التعجب تنهال علينا من كل جانب وكأنى قد أجرمت عندما لم أراع بروتوكولهم، وقرروا بالنظرة السريعة اللائمة، أننى لأامت للمدنية بصلة، والحقيقة أننى كنت سعيدة وأنا ألبس أبى معطفه، ولم لم يكن الرأى العام ضدى بهذا الشكل لالتفت إليهم ولقلت لهم: «إن أجمل شىء فى حياة المرأة الشرقية هو تعلقها بأبيها وأمها» ورعايتهما لها.. فالأب يظل أبا حانيا مسئولا ناصحا إلى آخر لحظة فى حياته.. أما عندكم فالأبوة تنتهى عند بلوغكم سن الرشد.

وإن أجلنا الطرف فيما حوله وتركنا أولاده وزوجته جانبا لرأينا علاقاته العائلية متشعبة فقد كان شديد الحب لعمته، وهى سيدة شديدة الذكاء، واسعة الصدر تتكلم فى كل موضوع باتزان ووضوح فطرى، وكانت لا ترحمنا نحن أهل بيته إذا سببنا له أبسط المضايقات وكان متعلقا بأخته وهى تكبره بعدة سنوات، وهى سيدة

سريعة البديهة تحفظ الشعر وتستشهد به رغم أنها لاتكاد تقرأ، ولكنها خالطت فى صباها جيلا من الناس أحب القراءة وحفظ الشعر وتعمق فى الأدب، وكان أبى يحب الجلوس إليها ويستعيدان معا ذكريات طفولتهما، وكانت تشهد له دائما بعذوبة الحديث وتقول: «أخى عزيز يضع قطعة من السكر على لسانه» ولكن كان يحلولها أن تشكو منه إليه وأن تذكره دائما بما فعلته له وهما فى بيت أبيهما.. وكم وضعت فى جيبه الجنيهات الذهبية كلما عاد إلى المدرسة بعد الإجازة، وكم تعمد أن يبدو وكأنه لايراها حتى لايمنعها من ذلك وكان يضحك ويقول لها: «وكيف أنسى أفضالك» ولكنها إذا أحست أن به ضيقا كانت نارا على من سبب له هذا الضيق، وعندما تنفرج الغمة تعود إلى الشكوى، وكان يحبها كما هى. أذكر مرة أنه وعدها بأقمشة كهدية فى مناسبة ما.. وقال لى أمامها: عليك أن تشترى لعمتك أحسن ما فى المحلات من أقمشة، فذهبت وأردت أن أرضى أبى وأرضيها، فأخترت أقمشة جميلة وبسعر معقول، ولما رأت الهدية بدا عليه الامتعاض ولكنها لم تقل شيئا، فلا هى أثنت ولا هى انتقدت وإذا بها بعد ذلك تشكونى لأبى. وكيف أننى لم أوفيها حقها وكيف أننى اشتريت أقمشة لا تليق بها، وكيف وكيف. فغضب أبى وقال لى «وهل طلبت منك أن توفرى لى، كيف تغضبين عمتك؟ وكيف لا تعرفين مايليق مما لايليق؟ والتفت إلى أخته قائلا: «أنا الذى سأشترى لك بنفسى كل

ماتريدين. «ومرت الأيام وجاءت المناسبة تلو المناسبة وطبعا لم يذهب أبى إلى المحلات لشراء الهدايا لأخته، وطال انتظار عمتى، ولم يصلها إلا الوعود والنية الطيبة وبالطبع لم أتطوع لأحل هذا الإشكال. وفى يوم تقابلت معها عند أبى فأخذت تربت على كتفى فى نعومة، وتنظر إلى نظرات مدللة، وتقول وتريد أن يسمع أبى: «الحق على لك لقد أدركت خطأى. من قال إن ما اشتريته لى لم يعجبنى؟ إذا انتظرت أن يشترى لى أبوك فسوف أنتظر عمرى كله. لن أشكوك بعد اليوم» ويضحك أبى ويأمرنى بتسلم مهام عملى الأول، ولكنى تحريت هذه المرة أن أشترى الأغلى ثمنا حتى أرضى عمتى وأعاكس أبى.

لما استقربنا المقام فى القاهرة سكنا فى حى الدقى وكنا نتمشى معا كثيرا فى شوارع القاهرة، ولايكاد واحد من المارة يمر دون أن يحيى والدى فقد كانت معارفه كثيرة بدرجة مذهلة، وكان يحيى رافعا يده إلى رأسه بحرارة تتفاوت على حسب درجة المعرفة، وفى يوم كنا سائرين أمام منزل صديقه سعيد بك الألفى فقال لى «تعالى أعرفك بسيدة جذابة الشخصية، ودخلنا ووجدنا صاحبة المنزل السيدة اعتماد الطرابلسى جالسة مع زوجها وأصدقاء لهما.. وأقبلت علينا تحيينا.. بوجه بشوش وصوت ساحر، وجلسنا معهم ودار الحديث عن الشعر فإذا باعتماد تقول شعرا من قيس ولبنى بصوتها الجميل وبنطق عربى أخاذ.. وبهرتنى هذه الأديبة الفنانة المعجبة. وأذكر

يوما أننا خرجنا نتمشى على النيل فإذا بى أرى أبى يعانق صديقا له التقينا به صدفة ويناديه «بياصديق العمر» ورأيت شوقا يفيض من عيونهما وحبا ينطق به وجهاهما، وما أن انتهى اللقاء الحار حتى سألته : «عن هذا الصديق الحبيب فقال إنه زميل دراسته وصديق عمره مصطفى مرعى» فقلت «كيف تحبه كل هذا الحب ولاتراه إلا صدفة» فقال «إنها الحياة تباعد بين الناس ولكن لا تستطيع أن تنزع الود من قلوبهم ولطول عملى فى الأقاليم قلت لقاءاتنا ولكنى أراه دائما عندما أكون فى القاهرة» وقص على كيف تعرف على مصطفى مرعى.. وقد كتبها فى الخطبة التى أعدها لاستقبال مصطفى مرعى بعد ذلك بعشرين عاما، وذهب قبل أن يلقيها واترك قلمه يصف التعارف« تلاقينا فى مدرسة الحقوق وكانت الثورة الكبرى قد اندلعت فى البلاد عامة فظاهر أهل البلد أجمع، ثم اختلف زعماء البلاد اختلفوا أى التدابير أسرع وأكفل لتحقيق الآمال؟ كان طلبة كلية الحقوق فى طليعة الطلبة الثائرين.. وكانوا جميعا إلا قلة قليلة منهم يؤمنون أصدق الإيمان بزعامة الزعيم الخالد سعد زغلول - تستهويهم وتسحرهم كلمته، ولم أكن منهم، وكان مقهى مدرسة الحقوق ندوة للطلبة يتشاورون فيه.. وذات صباح كنت جالسا بهذا المقهى.. وعلى قيد خطوتين منى جلس زعماء الطلبة يديرون بينهم الحديث ويناقشون فى الخطط والتدابير وإذا بواحد منهم قامت بعد ذلك بينه وبينى صداقة رحمه الله يقول وهو يشير إلى بإيماءة طرف

لم يخفها: «احترسوا فإن إلى جوارنا خصما لنا ولاجتماعنا غير مأمون الجانب» ولعل بعض الحاضرين قد وافقوا على هذا الرأى ولكن واحدا منهم اعترت طلاقة وجهه مسحة من العبوس ثم أجال نظرات فى إخوانه جميعا ثم بدأ يتحدث فى خفوت وهدوء.. تحدث عاتبا ثم لائما. ثم أخذ يتناول حرية الرأى وحرية التعبير، وحرية الإنسان فى اختيار الطريق الذى يتلاءم مع نفسيته واقتناعه مدافعا عن ذلك الذى وجهت إليه تلك الإشارة النابية، وحين عورض اندفع فى صوت متهدج يؤيد آراءه. ويقول إن اختلاف الآراء دليل على حيوية الأمة، وبرهان على محاولات كريمة تنشد الوصول إلى الحق، ولست أذكر كلمة الزميل على وجه الدقة ولكننى أذكر كلمة وكأنما سمعتها منه أمس قال: «فليؤمن كل منا بما آمن به وهذا خير. أما عبادة الأشخاص.. والتسابق إلى تأكيد ما يقولون وتقديس ما يصنعون فإنها علامة إسفاف متهافت يصيب الأمم والشعوب» ثم قام والغضب والأسف فى وجهه، ملامح هذا هو مصطفى مرعى كما عرفته فى أول لقاء، وظل على ما هو عليه إلى يومنا هذا «وانتهى وصف أبى لصديق عمره».

ورثاه مصطفى مرعى بعد مقابلتنا له على النيل بعشرين عاما فى المجمع اللغوى، وكان أبى قد أعد خطبة لاستقبال صديق عمره فى المجمع، وأجل سفره إلى الخارج مرتين ليتمكن من إلقائها بنفسه، إلا أن الله دعاه إلى جواره ولم يلقها، وقد طلب إبراهيم بك مدكور

عضو المجمع من بهى الدين باشا بركات أن يسألنى إذا كان أبى قد أتم الكلمة، ليلقيها ثروت أباظة بدلا منه، وكانت لفتة رقيقة. وألقى ثروت الكلمة وقام مصطفى مرعى وقال وصال وجال وتكلم عن الفلسفة والأدب ثم تكلم عن والدى كصديق وذكر مناداته له «بيا صديق العمر». وهو نداء لا ينسى لأن نبرات الصوت كانت من خفقات القلب ثم تكلم عنه كشاعر بلسان تنساب منه العواطف المتدفقة وبقلب ينهل منه الأسى..

وأذكر بعد وفاة السنهورى باشا أقام المجمع حفل تأبين فى سنة ١٩٦٨ ورثاه أبى بقصيدة منها:

ظلم الموت أن فى أحضانه
مرفأ للغريق فى أشجانه
ومجازا إلى جوار طهور
ساكب حوله سنا رحمانه
غيب الموت شافعى زمانه
وأصاب القانون فى برهانه
يعظم الخطب فى العظيم إذا لم
يرق راق إلى عوالى مكانه
نكس الفقه رأسه يوم أودى
وانطوى ساهدا على احزانه

راض للبـــاحثين جامحـــــه

الصوب وأرخى لهم عصى عنانـه

وحبـــاهم مـــن المراجــــع

بالغيـث تضيء الشروح فى هطلانـه

صفوة القول أنـه عبقرى الجيـل

غـــير المســبوق فـــى ميدانـــه

ذو حياء فى فضله حين بعض الخلق

ذو خبلـــة علـــى نقصانـــه

جمـع الشــرق وحــده فتلاقـــى

فـــى ديـــابيح علمـــه وبيانـــه

سادن العدل أعـرض العـدل عنـه

ســاخرا عــن يقينــه وحصاتــه

رأيـه الحـــر عــد مــن سـيئاته

والإبــاء الوقــور مــن ســقطاته

حسد الحاسدين يفضى عن السفح

ويرقـــى للطــود فـــى شــرفاته

إن رأى الإنســان ضــرب مـــن

العرض هما الأكرمان من حرماتـه

فـــإذا ســاقه اســتطارت قـــوى

الشـــر فـــألوت برزقـــه أو بذاتـــه

وإذا البغـى لم تزلـه فأمـهل
تفـل الأيـام حـد شـباته
ليـس حكمـا حكـم يشـق مـن
الإرهـاب مهواتـه إلى شـهواته
ليـس شـعبا شـعب يقـر علـى
الضيم ويشفى غليلـه فـى نكاتـه
إيـه عبـد الـرزاق أضفـى عليـك
الله مـن فضلـه ومـن رحماتـه
وتـولاك مـن رضـاه بفيـض
يتـوالى عليـك فـى جناتـه
يكـرم الله نـافع النـاس قبـل المنطوى
فـى صيامـه وصلاتـه
جـزع المجمـع الوقـور وهـل
يجـزع إلا للصـم مـن نكباتـه
كـاد لـولا حيـاؤه وجـلال
العلـم يـروى أسـاه فـى عبراتـه
أنـت حـى وإن طوتـك المنايـا
ومـن النـاس ميـت فـى حياتـه

وأذكر أن مصطفى بك مرعى كلمنـى فـى التليفـون حـوالى السـاعة الواحدة ظهرا وقال لى «أين عزيز؟ إنـى أريـد أن أقبلـه» فقلـت إنـه

لم يصل إلى البيت بعد فقال: «لقد قبلته فى المجمع مهنئا بالقصيدة ولكننى أريدك أن تقبليه عنى ثانية فلقد كانت القصيدة فوق الإبداع.

ولا يفوتنى مادمت قد تكلمت عن المجمع أن اذكر أن أبى قد دخل عضوا فى المجمع عام ١٩٦٢ وأن الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد قد استقبله بخطبة قيمة أسوق منها هذه السطور: يقول العقاد: «من نحو عشرين سنة ظهرت فى أفق البيان العربى آية من آيات الشعر والمسرح: هى رواية «قيس ولبنى» لشاعر لم يعرف له عمل فى هذين الفنين قبل ذلك: وهو زميلنا اليوم بمجمع اللغة العربية الأستاذ عزيز أباظة. وكان من حظى أن أقدم تلك الآية.. كما كان من حظى أن أقدم صاحبها اليوم فى هذا المجمع فقلت يومئذ فى مقدمتها: مؤلف قيس ولبنى لو قضى عشرين سنة فى السعى إلى المكانة الأدبية التى يعرفها له الأدب العربى الآن لما كان ذلك بالكثير على تلك المكانة.. لأنه باتفاق الجلة من العارفين شاعر من شعراء الطبقة الأولى فى اللسان العربى.. ومؤلف من مؤلفى القصص التمثيلى المعدودين فى هذا الزمان، وتلك منزلة رفيعة لا يكثر عليها أن تدرك فى عشرين سنة. ولا فى عشر، بل عرف بها فى أسابيع قلائل بغير مكابرة من أحد ولا رغبة فى المكابرة ممن يستطيعها ويهواها. لأنه غنى بالجوهر الأصيل ولم يعن بالعرض المضاف، أو هو قد اهتم بالقدوة ولم يهتم بالتقدير الذى لم يتطلبه ولم يضيع فيه وقته.

ثم تمت للشاعر النابغ عشر آيات قبل «قيس ولبنى» آخرها «قيصر» عصر عواهل الرومان ومن قبلها «قافلة النور» فى عصر الدعوة الإسلامية.. وأرى أننى أعود إلى تلك المقدمة فلا أغير منها كلمة وأعود إلى تلك القدرة التى تبينت لنا من المشاعر فى آيته الأولى فإذا هى لم تتغير فى الجوهر، وإن كانت فى ازدياد بتقدم ولا يتكرر، فكل ملامح القدرة المعهودة واضحة فى قيصر وضوحها فى «قيس ولبنى» كما تتضح ملامح الرجل الكبيرة في صورة صباه. هل يراد بهذا إن شاعرنا بلغ الشأو اخيرا وكان دون الشأو بكثير فى بواكيره الأولى؟ كلا إنه قد ارتفع إلى الطبقة الأولى بين شعراء العربية يوم ظهرت له قيس ولبنى بغير مكابرة من أحد ولا رغبة فى المكابرة كما تقدم.

وربما كان للوظيفة حكمها فى هذا الانطواء الفنى مدى تلك السنين التى تقدم بها الشاعر فى أطوار الاستعداد والمراجعة، فإن المدير أو الحاكم قلما يناسبه أن يطالع الناس بنجوى فؤاده كل يوم فى الصحف السيارة ولكنه لا حرج عليه أن يرفع الستار حينا بعد حين ليتحدث إليهم بألسنة المثلين وأبطال الفن والتاريخ. لا عجب إذن أن يطالعنا الشاعر بملكة نمت وأينعت وأن نرى فى «قيس» كل مانراه فى «قيصر» من تمكن الأستاذية وطمأنينة اليد الصناع والخبرة التى انتهت من المحاولة إلى الحول، ومن التجويد إلى الجودة.

وإنك لتقرأ عمله المسرحى وتقرأ له رأيه فى المسرح فتعلم أنه يهتدى مع السليقة برأى الناقد وذوق المشاهد. ويحسن الموازنة بين رأى ورأى، والمقابلة بين ذوق وذوق، فيعطى الصناعة حقها. ويصدر عن السليقة قبلها، ويكون أول الناقدين لعمله فلا يصيبه الناقد. إن أصابه.. إلا حيث يتقيه.

ولكننا نستقبل الزميل الجديد فلا يفوتنا أن نذكر له فضلا سابقا إلى إنصاف اللغة العربية وجلاء الحقيقة عن طبائع أهلها.. فقد طالما قيل إن شعر المسرح لم يظهر فى آدابنا قديما لضيق فى حظيرة القريض العربى وقصور فى خيال أبناء العربية، ولقد طال الرد على هذه الدعوى وتكرر القول ببطلانها، وعاد المؤرخون بالسبب إلى طبيعة البادية فى مجتمعها وشعائر دينها. فالزميل الجديد يؤدى بمجاميعه العشر قسطا فوق قسط الشاهد الواحد فى هذه القضية الرابحة، فإن له لنهجا من النظم البليغ يلتزم فيه شروط القريض ويتحرج فيه مما يباح للشاعر الموجز والمطيل، ويودعه ما يريد على ألسنة الرجال والنساء، وأمزجة الخيرين والأشرار، وخلائق العلية والسواد.. ومواقف القوة والضعف والضحك والبكاء، والرضى والحزن، فيتسع لما أودع، ويجاوز مدى التعبير إلى غاية من البيان المشبع والأثر البليغ.. ويكاد أن يلتزم مالا يلزم فى القصيد فيجرى الحديث الواحد على وزن لا يتعدد.. ويفرغ الموقف الواحد فى قالب لا يتشعب.. ويوشك أن يتحرج من قصر الممدود ومد المقصور وهما فى سعة من العذر المقبول لكل شاعر وفى كل مقام.

إن اللغوى العامل – عزيز أباظة – لفي الرحب والسعة فى مجمع اللغة العربية.. رشحته له أعماله الفصاح، ولم يرشحه لـه صاحب الأعمال كأنما شاء أن يصدقنى اليوم كما صدقنى قبل عشرين سنة إذ كنت أقول ما أعيده الآن «إنه اهتم بالقدرة ولم يـهتم بـالتقدير، فلم يعرف الراصدون هذا الكوكب إلا وهو فـى برجـه الأسنى قـد جـاوز الأفق وأصعد فى سمت السماء».

وعلى ذكـر المجمـع اللغـوى فقـد حـدث أن اجتمـع فـى القاهرة أعضاء المجمع اللغوى المصرى وكان عددهم يربو علـى المائـة.. واصر أبى ألا يخدم ضيوفه على المائدة إلا أولاده وأولاده إخوته زيـادة فـى إكرامه لهم وقد شعر الضيوف بهذه اللفتـة.. وأثـرت فـى مشاعرهم.. وكنا نخدم هذا العدد الضخم بسرعة ونشاط. واهتممنـا بكـل ضيـف على حده اهتماما بالغا.. ولكننا كنا نتكلم ونضحك مع بعضنا البعض أولاد عمى وأخى وأنا أثناء تأدية العمل.. والظاهر أن أبى نسى أننـا لسـنا مـن المحـترفين فـأبدى ملاحظتـه علـى صوتنـا العـالى وعلـى ضوضائنا.. فسكتنا وأتممنا عملنا بكل هدوء.. ولما خـرج هـذا الجمـع الخفير من حجرة المائدة جلسنا نحن أهـل البيـت لنتنـاول غداءنـا.. وإذا ببعض أعضاء المجمع يقتربون منا ويقولون بلطف:

– إن عزيز أباظة صمـم علـى ألا يخدمنـا إلا أولاده وهـانحن أولاء مستعدون أن نخدمكم بدورنا..

وكانت لفتة رقيقة.. ردا على لفتة كريمة.

خطف الموت أخاه عثمان ولما يبلغ الأربعين. فجزع أبـي وأذهلته الصدمة ولازمته آلام الكلية شهرا بأكمله، وأخذ أولاد أخية تحت جناحه، ووجد فيه أشرف وهو ابن أخيه أبا ومعزبا يفضى إليه بذات نفسه فيجد قلبا صاغيا ومجيبا.. وعندما فكر فى الزواج أتى إلى عمه فوجد عنده الترحيب والرعاية والمساندة وكان أول سؤال سأله لابن أخيه: أهي جميلة..؟

وهذه أبيات من رثائه لأخيه عثمان منها:

أخي وابني وأكرم أصدقائي
وأدناهم إلى نفسي مقيلا
ولدت على يدى فكيف تمضي
وأبقى بعدك الدنف الثكولا
هو القدر الذى يرمي. فلولا
يقيني. قلت: لم يهد السبيلا
سلخت صباك بين يدى وعيني
وفى حضني درجت فتى صقيلا
إذا الآباء حملهم بنوهم
وكم زل الصبا - الشجن الدخيلا
فأقسم ما لمحت عليك عابا
وقد لابستك الزمن الطويلا

ورف لـك الشباب فكنـت بدعـا
مـن الفتيـان متئـدا جليـلا
كملت فكنت أوفى النـاس صدقا
واسـرعهم علـى حـق نزولا
أخـى وابنـى وأكـرم أصدقـائى
وتـزدان الدنـا بـابن صديـق
وكنـت إذا أراك أقـول حسـبى
سناك يرف فى ليلـى السحيق
وأسمع همس خطوك حين تـهفو
إلى غرفـى مـع الليـل الغسـوق
واقتبـل الصبـاح وأنـت منـح
إلى بوجـهك الضـاحى الطليـق
وتحمـل عـبء أولادى وعبئـى
فمـن لى اليـوم بالـبر الوثيـق
تـأس أبـاك أشـرف وامتلثـه
ورم قلعـات سـؤدده السـموق

وقد أتم فى القاهرة مسرحية «الناصر» وظهرت على المسـرح عـام ١٩٤٨ هـ «شجرة الـدر» ومثلـت عـام ١٩٥٠ و «غـروب الأندلـس» ومثلت عام ١٩٥٢ و «شهريار» ومثلت عـام ١٩٥٥.. وقـد أخرجـها جميعا الأستاذ فتوح نشـاطى مـاعدا روايـة «النـاصر» فقـد أخرجـها الأستاذ زكى طليمات.

وكان الجمهور فى ذلك الوقت يحب الروايات الشعرية ويقبل عليها بل ويتجاوب معها تجاوبا يلفت النظر. غير أنه فى السنوات الماضية منذ سنة ١٩٥٥ حرم المشرفون على المسرح الناس من هذه الروايات بحجة أنها لا تصل إلى الجمهور العادى ولست أرى رأيهم.. فلو أنهم رأوا دار الأوبرا وهى تعرض على مدى شهرين أو يزيد كلا من «قيس ولبنى» و «العباسة» و «الناصر» ولو أنهم رأوا إقبال الجمهور وهو يتزايد يوما بعد يوم.. ولو أنهم سمعوا كلمة «الله» وهى تعلو استحسانا وإعجابا بالشعر، لو أنهم رأوا كل هذا لما أصدروا هذه الأحكام القاطعة. وأسوق هنا مثلا يؤيد كلامى سمعته من السيدة أمينة رزق وكتبه الأستاذ فتوح نشاطى فى كتابه «خمسون عاما فى خدمة المسرح» وهو أن الوزارة قررت أن تُحَلّ الفرقة القومية فى عام ١٩٤٦ لقلة ايراداتها، فطلب المخرج فتوح نشاطى مهلة حتى يتم إخراج «شجرة الدر» لعزيز أباظة بطولة أمينة رزق وأحمد علام، وافتتحوا بها الموسم ونجحت نجاحا باهرا وأتت بإيرادات خيالية، وعدلت الوزارة عن الحل، واستمرت الفرقة القومية.

وفى أوائل عرض مسرحية «الناصر» كتب أنيس منصور فى جريدة الأخبار نقدا عنيفا للمسرحية وهجوما شديدا على أبى، ولم يكن عادلا كل العدل وكانت أول مرة أسمع فيها اسم أنيس منصور ولم أكن أتصور حينئذ أنه يمكن لأى مخلوق أن يهاجم أبى بهذا العنف، وظللت أكرهه أعواما وأعواما، ولكن صلته توثقت بعد

ذلك بأبى وجمع بينهما ود أساسه الحب والإعجاب، وأزالت الأيام ما فى قلبى من غضب، وعرفته وعرفت زوجته، فلم أستطع إلا أن أعجب به أديبا وإنسانا.. وبزوجته صديقة من أجمل الناس خلقا وأخلاقا.

وبعد سنوات من ظهور المسرحيات جاءت الثورة ونال أبى الجائزة التقديرية عام ١٩٦٣ وخطب يوم الاحتفال بتوزيع الجوائز ودافع كعادته عن لغة القرآن. اللغة التى يجتمع حولها العرب أجمع، وعرض بمن يدعون للتقليل من شأنها والتخلى عنها، وقال عنهم إنها «فئة قليلة العدد - كثيرة العدد» فثارت ثائرتهم وظهرت الجرائد والمجلات وقد أرغب وأزيدت وكانوا منتشرين فيها حينذاك.

وطالعتنا مقالات تهاجم هجوما شريفا، وبعضها أو القليل منها هاجمت هجوما مسموما وحدث يوما والحملة على أشدها أن فتحنا التليفزيون فتصدى لنا رجل يلقى زجلا كان قد فاتنا أوله، وكان ثائرا متوتر الأعصاب، فقلت لزوجى، بالحاسة السادسة - هذا الرجل يهاجم أبى، وبعد ثوان أفصح وأبان وعاب على والدى تحمسه للفصحى ووقوفه إلى جانبها وسألت إحدى المجلات مجموعة من الشعراء اليساريين عن رأيهم فى خطبة أبى والواضح طبعا أن السؤال كان لتشجيع هؤلاء الشعراء على مهاجمتها، وقد هاجموه فعلا، ولكن فى رحمة وفى حب، وطلب منى أبى أن أقرأ

عليه رأى شاعر بعينه فقرأته عليه وأحسسنا أنه كالفأر فى المصيدة، فلا هو يريد أن يتخلى عن مذهبه، ولا هو يريد أن يسىء إلى أبى، فقال أبى باسما، يكفينى هذا منه. وأخفى أبى عنا سبب سؤاله ولكننى عرفت بعد ذلك السبب وأنى اليوم لن أذكره إكراما لرغبة أبى فى أن يخفيه.

وأذكر أن أحد الصحفيين قال إن شطرة واحدة من زجل صلاح شاهين بشعر عزيز أباظة كله والشطرة هى «ملايين الشعب تدق الكعب».

شاءت الأيام أن نسكن مع أبى فى بيت واحد فى المعادى، ويكفى أن أقول إنه لم يتدخل مرة فى شئوننا، ولم يسأل من أين أو إلى أين إن لم نخبره نحن. إذا نزلنا إلى طابقه رحب بنا وسعد، وإذا لم ننزل تركنا وشأننا إلا إذا أحس أن بنا تعبا أو ضيقا.

كان بفطرته رجل بيت. يحب بيته ويقدس الأسرة يجمع شملها ما استطاع إلى ذلك سبيلا وكان له مكان خاص فى حجرته لا يغيره وبجانبه كتبه الأثيرة وخصوصا «ديوان البحترى» وإن حاولنا أن نستعيره رفض قائلا «إلا البحترى ما أعرفش أعيش من غيره». لست أنساه فى مكانه هذا إلى جانبه منضدة عليها أوراقه وأقلامه، وخلفه عمود عليه لمبة للإضاءة، وعلى الأرض وحول قدميه كتبه ومراجعه وكلب أولادى لجأ إليه وآمن عنده، وفضل الاستكانة إلى جانبه عما يلاقيه من العنف والإجهاد مع أولادى، إنها صورة

جميلة لفنان أحب طول حياته البساطة، ولم يكن فيها مكان للغـرور ولا للادعاء..

وقد تأثر أبى تأثرا شديدا عندما مات هذا الكلب، ورثـاه بقصيـدة أهداها للفنان الكبير الأستاذ صلاح طاهر وحرمه لأنهما جزعـا جزعـا شديدا عندما مات كلبهما - ولأنهما مثلـه فـى شـفافية النفـس ورقـة القلب. وهذه بعض من أبيات القصيدة:

إنــى فقدتــك صاحبــا بادلتــه الحــدب النديــا
مـا إن خرجـت سـعى فلاحقنــى وودعنــى حفيــا
وإذا رجعــت هفــا إلى وهــز عطفيــه وحيــا
إن لم ألاطفـك النـهار حـزرت مــاأنحى عليــا
وعلمــت أنــى حــامل همــا تواردنــى فأعيــا
فتـدور حـولى كـالذى يسـتطلع الشـجن الخفيـا
وتمـد رأسك فـى يـدى وفـوك يعبـث فـى يديـا
أنــت الصديــق العـف لاجمــح الــوداد ولاتغيــا
كــلا ولم تعتــب إذا جافــاك تدليلــى مليــا
لم تمنــح الإخــلاص كالإنســان مــأجورا دنيــا
فـاذهب كمـا ذهـب الوفـاء طـواه لـؤم الخلـق طيـا

وفى المعادى كان للبيت حديقـة واسـعة يدخـل منـها الفـئران إلى داخل المنـزل،وقد أقام فأر صغير فى حجـرة المعيشـة الخاصـة بـأبى وكلما حاولوا طرده هرب مسرعاً ثـم يعـود إلى مكانـه المعـهود تحـت

مقعد والدى.. وكانت زوجة أبى ولا أحب أن أسميها بهذا الاسم- لأنها كانت أما لنا بحق.. كانت تنظف الغرفة قبل أن تأوى إلى فراشها حتى لا يبقى فيها أي أثر لطعام.. لييأس الفأر ويرحل. ولكن بعد دقائق يعود أبى ويضع له بعض الجبن والبسكوت شفقة ورأفه بالفأر الصغير الجوعان المذعور.

وكان فى أول إقامته معنا يفزع عندما يسمع صراخ أولادى وشجارهم ويتصور أنه قد ألم بأحدهما مكروه، ولكنه مالبث أن اعتاد ذلك، وانشغل بهم وتبنى آراءهم.. وانضم إليهم علىّ، ووجدوا هُم عنده الليونة وسعة الأفق فتحصنوا به وقاومونى بسلطانه علي، كنا حوله فى المعادى، حين رمته الأقدار بما يهدد كيان كل قوى ويزلزل نفس كل ذى بأس، ولقد كان قادرا على تحمل المسئوليات ويعف عن الكلام ويسمو عن الشكوى مهما أصابه، وما أكثر ما يصيب الناس - ملأته الصدمة بالمرارة. واهتز أول الأمر، ثم واجه الواقع وحده، ومشى إليه وهو فوق السبعين يحاول أن يجد منفذا يبدأ منه المقاومة، وجد المنفذ واقترب من الحل، وساعده صديقه الكردى رضوان فى ناحية اختصاصه بكل قواه، وقاوم ونحن من حوله نفديه بأرواحنا، ولكن لا نستطيع له شيئا.. ووقفت زوجته كعادتها إلى جانبه موقفا كأعظم ما تكون المواقف، ولكن أين لهذا الإنسان المرهف أن يجد العزاء فيما أصاب آماله وأمانيه، وكان لايكاد يخرج إلا لتذليل عقبة من العقبات التى رمى بها، وكنا لا

نتركه - كنت إذا نويت الخروج وتهيأت له - ما أن أصل إلى باب الحديقة حتى أجد نفسى مرتدة على أعقابى لأكون إلى جانبه، ولكن الله رحمان.. فقد خرج من تلك الغمة ثابتا، ولكنه أعطي من عواطفه ومن ماله ما طاقة له به.

وكانت قد جمعته بمحمد طاهر أباظة صلة عمل، واتخذه سكرتيرا له عندما كان رئيس مجلس إدارة في مطبعة مصر، واعتبره ابنا له وجاءني محمد في هذه الأيام العصيبه يقول ولا يحاول أن يغالب ثورته : «أنا لن أسمح لأحدكم أن يسبب كل هذا الغم لأبيه يخيل إلى أنه في إمكاني أن أقتلكم كلما رأيته على هذا الحال. أنتم لستم جديرين بأن تكونوا أولاد عزيز أباظة» ولقد حرمتنا الأيام من هذه المشاعر الجياشة، فقد اختطف الموت محمدا ولم يتجاوز السابعة والأربعين من عمره..

وحدث أن سافر أبى إلى الخارج وقضى شهورا ثلاثة هناك، وكنا لانزال نسكن في بيت واحد.. وطالت علينا غيبته وشعرنا بوحشة شديدة بدونه، ولما عاد وسمعنا صوته فى الصباح الباكر يتحدث مع البستانى بلهجة كلها ود وبساطة شعر زوجى ثروت أباظة بالفرحة تملأ نفسه وأرسل من تأليفه أبيات من الشعر وهى:

طربـــت بصوتـــك النـــادى

يـــرن بشـــارع النـــادى

فقـــد كنــــا علــــى شـــوق

فــــروى شــــوقنا الصــــادى

ووقعهما باسم ابننا دسوقى:

وعرف أبى طبعا أن ثروت هـو الـذى كتـب البيتـين وسـعد بـهما وقال لى:

- اوعى تفتكرى أنك بس اللى بنتى وفـى مناسبة مماثلـة أرسـل إليه ثروت هذه الأبيات من تأليفه أيضا يقول فيها:

بقربــك تزدهــى الدنيــا

ويحلـــو العيــــش والأمل

منيــــع حصننـــا فيـــــها

ونضـــر نبتنـــا خضــــل

فــإن مــــالت طرائقــــها

ذكرنــــاكم فتعتــــــدل

وكنا نستقبل فى حديقة المنـزل أولاد أخيه وأطفالهم وكـان يسـعد بزواره ويخرج من وحدته وينسى ما به.

وفى المعادى كتب «إشراقات السيرة الذكية» فقـد اقـترح عليـه عبد الحميد جودة السحار - رحمـه الله. أن يكتـب السيرة النبويـة شعرا، ثم تصور سينمائيا وتغنيها أم كلثوم مـع عبـد الوهـاب فلاقـت الفكرة قبولا فى نفسه وكأنه كان ينتظر هذا الاقتراح، ولم تمض أيــام

إلا وقد نادانا لنسمع ما كتب، وأخذ يقرأ علينا، وكانت هذه عادته، ويقول لزوجى ولى ولإخوتى «أنتـم جمـهورى» ويـأتى صديقـاه أنـور أحمد والدكتور الدمرداش أحمد ليسمعا معنا ما تم من السيرة النبوية، وتجمعنا الحديقة، وتمر الساعات لايكاد يشعر بمرورها أحـد. وأذكـر أنه عندما كان يكتب آخـر أبيـات فـى السـيرة النبويـة كـان أولادى يديرون إسطوانة لاوبرا «لاتوسكا» وهى تغنى وتصرخ وتبكى حبيبها بالإيطالية. والموسيقى تعلو وتعلو وتصاحبها إلى أعلى الدرجات، وفى نفس الوقت كان زوجى يصرخ فى أولاده أن يترفقوا بجدهـم. ووسـط كل هذا كان أبى يكتب بهدوء عن النبى العربى فى المدينة.. فذهبت إليه وأنا أرثى له وقلت: «كيف تكتب والحال هـذه؟» فقـال برقـة: «لا عليك، فإنى لم أسمع من ضوضائكم شيئا»

وجاء أنور أحمد يوما لزيارة أبى كعادته، وأثناء الحديث سأله:

– أرنى ياباشا شعرك الذى لم ينشر.

– إنها قصائد كثيرة ولكنى أظن أنها لا تهم أحدا.

– كم عددها.

– لا أذكر.

– أأستطيع أن أراها؟

أتى أبى بحقيبة بها كل قصائده، فقال أنور أحمد:

- حرام ياباشا تبقى كل هذا فى الظلام.. إنه يمكن أن تطبعها فى ديوانين.

- إننى لا أرى داعيا لنشرها.

- ليس من حقك أن تحبس هذا الشعر عن الناس، ولن أخرج من هنا حتى تعدنى بنشره فى ديوان.

وأنتهى إلحاح صديقه عليه بموافقته على أن يراجع معه قصائد شعره. وجاء أنور أحمد فى اليوم التالى، وأحضر له أبى الحقيبة السوداء التى تضم الدفاتر والكراريس والأوراق التى سجل بها شعره الذى نظمه فى الرثاء والغزل والإخوانيات ووصف ما رآه فى رحلاته الكثيرة وانفعلت به نفسه، وفى المناسبات الوطنية ومهرجانات الشعر العربية، وكثير من هذه القصائد لم ينشر ولم يكن فى حفل ولم تطلع عليها عين إنسان.

وقضى الصديقان يوما كاملا فى بيتنا بالمعادى يراجعان ويرتبان وينسقان، ووجدا بعض القصائد تحتوى على فراغات لم تكتمل، فوعد أبى بإكمالها، وصمم على أن يكتب له أنور أحمد مقدمة للديوان.

ولكن شاء القدر ألا يصدر الديوان فى حياة أبى، فقد اختاره الله إلى جواره قبل إتمام ما وعد به صديقه، فسلمت أنور أحمد حقيبة الشعر، فقام بإعداد الديوان للطبع وسلمه إلى حسن الزين صاحب

دار الكتاب اللبنانى التى طبعته في مجلد واحد يضم أربعة أجزاء، مكتوبة كلها بخط اليد، على ورق فاخر، وبإخراج فنى رائع.

وكانت دار الكتاب اللبنانى هى التى طبعت قبل ذلك جميع مسرحيات أبى وديوان «أنات حائرة» فى مجلدين بعنوان «مسرح الشعر» لحساب الحكومة الليبية بتوجيه من الملك إدريس السنوسى. وكان ذلك بداية صداقة وطيدة ربطت بين أبى وبين الأستاذين حسن الزين وابن عمه محمد سعيد الزين صاحبى دار الكتاب اللبنانى وقد دعاهما أبى إلى بيته فى المعادى، كما قدمهما إلى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين الذى وقع معهما عقدا لنشر مجموعة مؤلفاته الكاملة فى بضعة عشر مجلدا. وسافر أبى إلى لبنان بدعوة من دار الكتاب اللبنانى لحضور معرض الكتاب الدولى الذى نظمته الدار واشتركت فيه منظمة اليونسكو حيث ألقى قصيدة، وكان موضع حفاوة كبيرة، وتوثقت الصداقة بينه وبين شاعر لبنان الكبير سعيد عقل، الذى جاء إلى مصر بعد ذلك وألقى قصيدة رائعة فى الحفل الكبير الذى أقيم لتأبين أبى، وهى القصيدة المنشورة فى ختام هذا الكتاب.

وطوال السنوات التى أقمنا فيها معا فى المعادى كان أبى يذهب يوم الثلاثاء من كل أسبوع إلى بيت صديقه حمد الرجيب سفير الكويت فى مصر. يسهر عنده مع أقرب الأصدقاء ويستمعون إلى الموسيقى الشرقية التى يحبونها جميعا، والحق أن حمد الرجيب

ظل إلى آخر يوم من حياة أبى صديقا من أوفى الأصدقاء، وقد شاء أن يؤكد هذا الوفاء ويعلنه فألف موسيقى «قافلة النور» التى أعدها أنور أحمد للتليفزيون عن رواية أبى.

وكنت إذا دخلت معه فى سهرة عند أصدقائه رأيت العيون تتجه كلها نحوه. وكنت أرى السيدات يولونه عناية خاصة. وكان يسعد بها، ويستزيد منها بما وهبه الله من حلاوة الحديث وسماحة الوجه.

تقول صديقة لى وهى سيدة فاضلة وزوجة مثالية. تقول..

- لم أر فى حياتى أبهى من أبيك. إننى حين أراه سائرا فى شوارع الزمالك أسير خلفه ثم أذهب إلى بيتى وأقص على زوجى ما فعلت، وإذا قابلته مرة أخرى. تبعته أيضا وكررت الاعتراف..

وكنت كلما قصصت على أبى هذه القصة قال ضاحكا

- أهى دى الستات اللى بنفهم.

لم أر أبى يكتب فى حجرة خاصة أو على مكتب، وإنما كان يكتب على ركبتيه وبملابس البيت ويحب أن نكون معه، ويتدخل من آن لآخر فى حديثنا، ليشعرنا أنه يتابعنا، وأننا لانضايقه. وكان يحلو له أن يسهر معنا ويحدثنا عن ذكرياته فى مجلس النواب ١٩٣٦ عندما كان فى المعارضة ويكلمنا عن نوادر الانتخابات فى الثلاثينات. وقد روى لنا أنه لما بلغ السابعة من عمره أدخلوه كلية

فيكتوريا فى الإسكندرية مع خمسة من أبناء عمومته، وكان الدكتور محمود أباظة أو الذى أصبح دكتورا فيما بعد أكبرهم سنا. يبلغ العاشرة وكان يستغل فارق السن ليصادر أموال إخوته وأبى معهم. وكان يأمرهم أن يقوموا بخدمته وإعداد سجادة الصلاة كلما أراد الصلاة.. وأن يرتبوا سريره بدلا منه وفرض على المقصر غرامة هى مصروف يومه، وكان المساكين يتسابقون لإرضائه ولكنه كان يبدى استياءه من خدماتهم حتى تتجمع ثرواتهم الصغيرة فى حافظته هو وكان أبى يرويها أمام الدكتور محمود، وكان يضحك من سذاجة أبى وزملائه.

وحكى لنا أنه عين مديرا لأول مرة فى القليوبية، وذهب إليها حينذاك وحده، وأقام عند خالته حرم الدكتور حسين أباظة وكانت تقيم مع زوجها هناك، ولأنها تصغره كثيرا كان دائم المزاح معها. وفى يوم بعد عودته من المكتب صعد السائق والشاويش ليحضرا الحقيبة فوجدا الباشا المدير يجرى حول المائدة وخالته تجرى وراءه مهددة متوعدة، فصعق السائق، وذهل الشاويش.

وكان يحكى لنا هذه القصة ضاحكا أنه يوم وفاة النحاس باشا وكان ذلك بعد الثورة بسنوات وكان هو فى الإسكندرية، ولم يكن فى وسعه أن يلحق بجنازة النحاس باشا فى القاهرة إلا إذا ركب قطار الصحافة الذى يقوم فى الساعة الرابعة صباحا، وليس به إلا الدرجة الثالثة، ولحق بالقطار وركب فى الدرجة الثالثة. وتعرف عليه بعض

الركاب، واخذوا يتعجبون.. ويتغامزون فيما بينهم، ولكنه كان مصمما على السير وراء النحاس باشا في مماته، ولم يكن قط وراء النحاس باشا في حياته، بل إنه لم ينتسب إلى حزب الوفد حين كان طالبا وكان الوفد طوفانا..

وحكى لنا أنه كان في باريز في صيف سنة ١٩٥١ وتلقى من شامل دسوقى أباظة برقية يحدد فيها موعد وصوله إلى باريز.. كان شامل في العشرين وحصل علي بكالوريوس التجارة ويريد الحصول على الدكتوراه من فرنسا، وذهب أبى إلى لقائه. لكن الطائرة لم تصل. وانتظر أبى طويلا لأنها كانت أول سفرة لشامل وأول مرة يغادر فيها مصر، ولكنه لم يصل. فعاد أبى إلى الفندق، ولما وصل شامل ولم يجد أبى في انتظاره ارتبك وأرسل برقية إلى أبى قائلا أو صائحا باللغة الإنجليزية التى لم يكن يعرف غيرها من اللغات الأجنبية «عمى أنا ضائع» فسارع أبى إليه وعاد به إلى الفندق وأخذه معه في حجرته..

وليزيل عنه الحرج ورهبة الغربة.. مشى معه في شوارع باريز.. واصطحبه إلى بيوت الأزياء ليريه المانيكان، وهن رائحات غاديات ولكن شامل لم تعجبه باريز.. وقال إن قريته «غزالة» أجمل بكثير.. ولكنه غير رأيه بعد أن أقام بها سنوات أربع.

ومن ذكرياته التى يعتز بها، يوم زارته أم كلثوم وكانت قد فاجأته نوبة قلبية في السودان سنة ١٩٥٨ وعاد مسرعا إلى مصر، ثم

جاءت أم كلثوم وجلست إلى جانبه تقرأ له القرآن وترقيه.. وقد وصفها فى قصيدة فى الحفل الذى أقيم لها حين عادت من أمريكا سنة ١٩٥٤ بأبيات منها:

أصغى لك الله فى علياه قارئة
فى غفوة الفجر آيات الحواميم
تتلين مبتلة الآماق خاشعة
والقلب يذرف دمعا غير مسجوم
ما أنت فى الناس روح عذبة لطفت
أذابها الله فى عليا الترانيم
ما أنت إلا اعتذار الدهر قربه
لكل عان ومظلوم ومكلوم
سمراء من قرية من كان يعرفها
فى أى ناحية أو أى إقليم
هزت ربى الشرق هزا فاستدار لها
وقال. من تلك؟ فى فخر وتعظيم
تلك التى ازدانت الدنيا بها فغدت
غنية باسمها عن كل تقديم
طماى انجبت للأجيال معجزة
عزت وطالت فكانت أم كلثوم

جاءته ابنة صديق حميم له كان قد توفى بعد فرض الحراسة عليه، وكان من أغنى أغنياء الصعيد وكان يتمتع بسلطان واسع فى مركز من أهم مراكز أسيوط. بنى هناك محكمة ومدرسة ومستشفى على حسابه الخاص إلى أن وضع تحت الحراسة وزال عنه كل شيء، واختاره الله إلى جواره جاءته ابنة هذا الرجل بعد طلاقها وطلبت منه أن يجد لها عملا، أخذها بين ذراعيه وبكى كالأطفال، وذهب معها إلى إحدى المؤسسات ولم يخرج إلا وقد ضمن لها العمل.

سافر أخوه أحمد للعلاج فى باريز.. وكان حب أبى لأخيه لا حدود له ولا نهاية.. اجتمع فيه حب الأب لابنه والأخ لأخيه، وكنت أقول له إنك تحبه أكثر من أولادك ولم يكن يدافع عن نفسه، ولما سافر كان من المتوقع أن تجرى له عملية هناك وكان أبى فى بيروت فى مهرجان شعر أقيم تأبينا لبشارة الخورى فكلمنا ليخبرنا أنه إذا تقررت العملية فسيسافر إلى باريز من هناك وعلينا أن نرسل له الملابس الشتوية، وأعتقد وهو فى هذه السن إنه فى إمكانه أن يكون رفيقا فى مستشفى، ولكن الله سلم ولم تجر العملية.

ولبنات أخويه عنده مكانة خاصة، فإذا جئنه أخذهن على ركبتيه فإذا بثلاث شابات: حورية ولبنى ونظيمة. يتنافسن على الجلوس على ركبته، وهو سعيد بذلك يجامل هذه ويداعب تلك بابتسامة حلوة وكلمات عذبة، وقد رأيته يوم خطوبة نظيمة وكانت

قد أعلنت فى بيته فى المعادى، رأيته واقفا فى الصالون يضع السجائر فى الأطباق الفضية بنفسه مخافة أن ننسى أو نسهو.

وقد أراد أولاد إخوته أن يجاملوه فى هذه المناسبة فأخذوا يرددون الأغنية التى قيلت له يوم زواجه الأول وهى أغنية كان يرددها الفلاحون فى الربعماية حينذاك يابن عمى ياقصب منديلى فطرب وهشت أساريره، وابتسمت عيناه وامتلأت بالذكريات، وأخذ يصحح لهم اللحن ويغنى معهم.

وقد زار أبى السعودية والكويت وتونس والمغرب والأردن وليبيا قبل ثورتها، وكان الملك إدريس يحبه ويقربه إليه، وأحس بالتكريم والتقدير فى جميع البلاد العربية. فهم الغيورون على لغة القرآن، وهو من حافظ عليها وحمى حماها، وهم عرب يقدرون الأدب والشعر.. والأنساب، وكان كلما سافر فى مؤتمر هناك استقبلوه بالترحاب، واستقبلوا شعره بالتقدير والإعجاب، وكان هو يعجب بالجواهرى شاعر العراق وبأبى سلمى شاعر فلسطين وبعمر أبى ريشه الشاعر السورى وبدوى جبل، وكان حينما يجتمع بصديقه عبد المنعم الرفاعى شاعر الأردن الكبير ورئيس وزرائها السابق يطلب إليه أن يسمعه بعضا من شعره فى الغزل، فيقول الرفاعى غزلا رقيقا صادقا نابعا من أعماق الأعماق ويهتز أبى ويستزيده، وتمر الساعات فى حب وشعر وغزل وقد ذهب أبى مع أخيه أحمد وزوجته إلى عمان للعزاء فى صديقهم حيدر بك شكرى، وقد رثاه أبى بقصيدة ألقيت

فى ذكرى الأربعين، واستقبله أهل عمان لقاء حرارة، وقامت نهلة القدسى بواجب الضيافة فى بيت أهلها هناك، وكان يناديها دائما. بياابنة العم.

وقد زار هناك الملك حسين ولم يتركه صديقه الدكتور عبد المنعم الرفاعي لحظة. وسهرا الليالى معا فى بيته فى عمان.

وقد قالت لى زوجة أخيه. إن أهل الأردن قد توافدوا عليه فى الفندق وإن السيدات أقمن له ندوة نسائية وطالبنه أن يلقى. قصائد من أنات حائرة فى رثاء زوجته الأولى وابنة عمه، وكانت ندوة كلها عواطف وذكريات. كرمت السيدات فيها ضيفهن، وكرمهن هو حينما كرم المرأة فى ديوانه.

ليس من حقى أن أتجاهل الإلهام فى حياة أبى، فقد قال مرة فى حديث صحفى ردا على سؤال: إذا قلت إنه ليس هناك ملهم لما صدقتنى، ولما صدقنى القراء، واذا قلت إن هناك ملهما لأحرجت بعضا من الناس والواقع أن قلبه قد ملأته أقدس المشاعر وأسماها.. وتدفق الشعر من نبضاته عذبا صادقا وملتهبا، وتلاقت روحه بروح ملكها الحب وفاض بها الإعجاب والتقديس، واستطاعت بما أغدق الله عليها من هبات أن تملأ وعينه وحياته، فعاش أيامه آمنا أمينا، وظلت هذه الروح تحيا فى خفقات قلبه إلى أن كف هذا القلب عن الخفقان.

كيف أصبحت وماذا تفعلين
عصف البعد بقلب الغائبين

أنت فى إشراقة الفجر معى
كلما رف سناه تشرقين

فإذا الليل احتوانى ستره
فلهاب النار بى ماتشعلين

أجزع الليل وما أطوله
وأكف العبرة موصول الحنين

ساهدا والسهد روح وضنى
هل عرفت السهد؟ لا.. لا تعرفين

إنما السهد وقاك الله من وقده
من صلوات العاشقين

إنما السهد لمن غيرته
اقلقته فمضى لا يستبين

إنما السهد لمن هان على الفه
وهو سليل الكابرين

حمل الهاتف لى عنك صدى
خاضع النبرة مخمور الأنين

خلته صوتا من الخلد زكا
مثلما يزكو ابتهال المرسلين

عذلوني فيك جهلا فاغفري

سقط الجهل ودعوى الجاهلين

لج بي حبك فودا طفلة

والتظى حبك عند الأربعين

ليست الزهرة في برعمها

إنما الزهرة في يوم تبين

والهلال النضو هل يفتننا

في زها مولده؟ أم بعد حين

لم يزدك العمر إلا فتنة

كالطلا تعذب في حضن السنين

كيف أصبحت وماذا تفعلين

عصف البعد بقلب الغائبين

كان أبي يسافر إلى أوربا كل عام وله شقة صغيرة في لوزان يستأجرها في الصيف وتجملها زوجته فتبدو أنيقة رغم بساطتها، وكان يدعوني لقضاء شهر هناك.. ولا أنس أول سفره لي معه، فقد كان يشكو من آلام روماتزمية في كتفه وقدمه.. ولكنه صمم على أن يصحبني إلى متاحف لندن وباريس، وكان يجلس هو ويطلب إلى أن آخذ من الوقت ما أشاء ثم أعود إليه. وكنا نمشي معا في شوارع باريس ساعات مع رشدي راشد، وهو شاب يعمل ويعد للدكتوراه في الفلسفة، وقد أحب أبي وقدره وأحبه أبي وأعجب بذكائه ومثابرته،

وعامله كأب. وكنت أدعى التعب من المشى حتى يرتاح أبى - ويجلس.. وليتأكد من أن الذنب ذنبى، وإنه هو قد فعل فوق ما يستطيع.

وهو فى السفر وبشهادة كل من صاحبه لا يفكر إلا فى أن يدخل السرور على من معه وأن يوفر لهم سبل الراحة. ولا أنساه أمام واجهات المحلات وقد لاحظ أننى أختلس النظر إليها ولا أقف أمامها مراعاة له وقف هو وقال ضاحكا: أنا أيضا أحب الوقوف أمام المحلات مادمت لن أدفع شيئا، وكان ينتهى بنا المطاف فى لوزان، وكنا نخرج معا فى الصباح، وإذا لم نخرج معا تقابلنا صدفة، فلوزان بلد صغير وإذا ذهبنا إلى «أوشى» حيث كان يصطاف محمود بك تيمور.. كان يرجع بذكرياته إلى سنة ١٩٣٧ عندما زارها مع والدتى، ويشير إلى الفندق الذى نزلا فيه معا، ويعيد على هذه الذكريات.فى كل عام.. ونحن نطوف حول هذا المكان.

كان يستيقظ من نومه فى لوزان ويصر على أن يرتب سريره بنفسه حتى لا يتعبنى، وطبعا لم يكن يرتبه وإنما كان يتركه كما هو ويغطيه بالغطاء معتقدا أنه رتبه. وكنت أقول له : أرجو يا بابا ألا تعمل شيئا طالما أنا معك.

وكان يصمم أن يصنع القهوة ويصمم أن يغسل فنجانه حتى يتعاون معنا فى الخدمة وقد أخذت له صورة فتوغرافية وهو يغسل

الفنجان، ورأتها عمته. فاستنكرت منه هذا، وثارت عليه وكادت أن تخنقني. كل هذا وأبي غارق في الضحك.

وأذكر أنني شعرت بوعكة خفيفة في لوزان ووصف لي الطبيب أدوية للأعصاب. فاشترى لي أبي كمية تكفي لمدة عام بأكمله، لأن الأدوية لم تكن توجد في مصر حينئذ، وعدنا إلى المنزل، وأخذت أنا الأدوية، وذهبت إلى الأجزخانة وبدلتها بمستحضرات تجميل لي ولصديقاتي طبعا دون علمه، وكنت قبيل عودتي إلى مصر أقول له لقد صرفت كل ما عندي وعليك أن تساعدني في الهدايا، ثم أخرج مع صديقتي وأظهر ما أخفيت من أموال وأشترى وأشترى.. وفجأة أراه أمامي في الشارع وأنا لا أكاد أراه من اللفائف التي أحملها، فأقص عليه قصصا طويلة ملفقة يسمعها ولا يجيب، ولا يحرجني ويشترى لي ما أريده، ويكتفي بأن يقول لي وهو يودعني في المطار: «أنت لا تكفين عن الطلبات. ولا يكفيك شيء» فآخذ يده و أقبلها، وأقبله وأرى في عينيه التأثر، وفي ابتسامته الرضا.

كنا على صلة قوية بأسرة مصرية تقيم في لوزان، فرضت عليها الحراسة في مصر فذهبوا إلى هناك وبدءوا حياتهم من جديد وكان الله معهم فنجحوا نجاحا يشرف كل مصرى، لاحظ أبي أن علاقة الزوجين يشوبها فتور وصل إلى الجفاء بل إلى المقاطعة. وطلب مني أن أسألها إذا كان في إمكانه أن يصنع شيئا من أجلها. كأن يكلم الزوج الذى يعتبره ابنا له وله عليه حق التوجيه..

والحقيقة أننى لم أجرؤ على سؤالها، فهى لم تكلمنى فى الموضوع وأنا أراها كل يوم ونخرج معا من الصباح إلى المساء - فكيف أقحم نفسي فى حياتها؟.. وكان أبي يسألنى كلما عدت من الخارج، إلى أن اقترب موعد رجوعي إلى مصر قال لى:

- هل سألتها؟

لا لم أجرؤ

- إن لم تسأليها أنت فسأسألها أنا - أنا لا أستطيع أن أراهما على هذه الحال ولا أحرك ساكنا.

- ولكنها لا تريد أن تتكلم.

- لن أترك هذا البيت ينهار أمام ناظرى ثم أنا هنا فى مكانة أبيها.

وفى اليوم التالى خرجت معها كالعادة وجمعت أطراف شجاعتى وقلت:

- إن أبى مصر أن يتدخل بينك وبين زوجك. وقد طلب منى أن أبلغك ذلك منذ يوم وصولنا فأجابت والدموع فى عينيها.

- إذن كنت تعلمين طيلة هذا الوقت.

- نعم ولم أجرؤ

– قولى لأبيك يكفى أننى شعرت منه بحنان الأب ولهفته وأنا فى هذه الغربة، ولكنه لا يستطيع لى شيئا، فالأمر أخطر بكثير مما يبدو، ولكن أرجوك لا تخبرا أبى وأمى.

ولم يتدخل أبى بطبيعة الحال، وعدنا إلى مصر ومشاعرنا مع هذا البيت الذى أحببناه ومرت الأيام وجاءت هي إلى القاهرة، وأخبرتنا أن السعادة عادت إلى بيتها، وعاد الطائر إلى عشه، والحقيقة أنها صمدت للعاصفة بعقل وكرامة.

وكان يصلنا فى لوزان يوم ١٣ أغسطس. وهو يوم ميلاد أبى رسالة من أنور أحمد كلها حب ووفاء.. عالية الأسلوب جميلة المعانى، وكان أبى ينتظرها كل عام، ويرد بقصيدة يهديها إلى صديقه الكريم.. وكان يصله من بنات أخيه حورية ولبنى وهما من خريجات الجامعة فى هذه المناسبة رسائل تزلزل سيبويه فى قبره، ويجزع لها أبى أشد الجزع، ولا ينسى عند عودته أن يلوم لبنى على الأخطاء النحوية والهجائية. فأصبحت تبعث إليه برسائل تلغرافية كما كان يسميها عبارة عن سطرين حتى تتحاشى اللوم، وتدع سيبويه هادئا حيث هو، وآثرت حورية أن تكتب بالفرنسية رسائل طويلة مفصلة كان يقرؤها على أيام متتابعة وكانت هديتى له فى عيد ميلاده هدية رمزية، فهو لم يكن يحب أن يهدى ولا أن يهدى إلا إذا لم يكن هناك مفر من ذلك.

وكانت له في لوزان علاقات عميقة وأصيلة، فمصطفى الزناتى قد حتمت عليه ظروفه أن يقيم فى لوزان وكان من أغنياء الأقصر، وترك بعد أن وضع تحت الحراسة كل شىء، وتوجه إلى سويسرا ونجح وأثبت أن المصرى الكفء ينجح حيثما يكون، وهو متزوج من كريمة محمود بك العتال وقد حباها الله جمال المظهر وكمال المخبر، تجمعنا حديقة بيتهم كل صيف ويشعر أبى معهم أنه فى بيت أولاده، ويشعرون هم به أبا وصديقا..

ومن معالم سويسرا بالنسبة له حسين بك أبو الفتح وحرمه، فقد أقاما فى جنيف - وكان يلتقى عندهم بأصدقاء قريبين إلى نفسه. ينسى معهم همومه وأشجانه، وكان يقضى النهار معهم إذا أراد أن يبتعد عن رتابة الحياة فى لوزان.

وأذكر ونحن فى لوزان أيضا أن ذهبنا معا إلى السينما وبعد انتهاء الفيلم أمسكت تلقائيا بمعطف أبى بكلتا يدى ووقفت خلفه لألبسه إياه.. وإذا بالنظرات تحوطنا من كل جانب وكأنى قد أخطأت عندما لم أراع بروتوكولهم وساعدت أنا أبى بدلا من أن يساعدنى هو كما هو الحال عندهم.. وقرروا بنظرة متعجبة مستهجنة أننى لا أمت للمدينة بصلة والحقيقة أننى كنت سعيدة وأنا أساعد أبى على ارتداء معطفه ولو كان عندى قليل من الجرأة لقلت لهم إن أغلى شىء فى حياة المرأة الشرقية هو تعلقها بأبيها وبأمها حتى بعد زواجها. ففى الشرق يظل الأب أبا والأم أما يعيشان لأبنائهما ويحسان بمشاكلهم

ويغرقانهم فى بحر من الحنان والحب والرعاية إلى آخر لحظة فى حياتهما.. أما عندكم فالأبوة بجمالها وجلالها تنتهي عند بلوغكم سن الرشد.

وكان الشهر يمر سريعا.. وكنت أثقل عليه قبل عودتى إلى القاهرة وأصمم على أن أعود بهدايا لإخوتي وأولادى، وكان يرمينى بالأنانية وهو فى الواقع على حق. وكنت أقول له: إننى أنانية ولكن معك أنت فقط، فأنا أنتظر منك كل شيء ولا أطالب غيرك بأى شيء فكان يقول باسما لا تحملين للدنيا هما مادمت على قيد الحياة ثم يحول الجد إلى مزاح ويقول «إذا لزم الأمر أبيع هدومى عشانك ياستى» ولم يكن مزاحا ما يقول فقد كان هذا ما يشعر به، ولكنه كان يخفى بالمزاح ضعف الأب فيه.

وكنا نتبادل الرسائل بعد عودتى إلى بيتى وأولادى، وكان يعجب برسائلى ويشهد لى دائما حتى أنه تكلم مرة فى الإذاعة وقال عنى إننى أكتب أحسن من ثروت أباظة. وسألته المذيعة؟ هل هذا الكلام للنشر فقال «نعم» ثم تكلم عن أخى بما لم يرض أخى، وواضح طبعا أن حديثه فى الإذاعة حديث خفيف وليس بحثا فى الأدب، ولكن زوجى ثار. وأخى ثار. ولم أجرؤ على الشعور بالزهو بين هؤلاء الثوار.

وهذه رسالة منه سنة ١٩٦٣

عزيزتى عفاف

وصلنى خطابك فى جنيف قبل أن أقوم إلى لندن بدقائق، ولاشك أن الخطاب رقيق السياق عالى الأسلوب.. ولكنه أدهشنى وكان موشكا أن يثيرنى. فيم العتاب؟ وفيم الغضب؟ ما الذى وقع فى هذه السفرة ولم يقع فى السفرات السابقة؟ وما الجديد الذى أثار فيك الغضب فمنعك أن تكتبى متعمدة؟ أنت اعتدت تطلبى ما تريدين، وأنا اعتدت أن أجيب إذا كان فى مقدورى أن أجيب، ولقد أكون والدا غير مثالى، ولكننى على التحقيق لست والدا يشتكى منه.

أبوك

ولست أدرى ما الذى كان يمكن أن يغضبنى منه. أظن أنى اعتبرت أن سفره بدونى تقصير شديد فى الواجب المفروض على الآباء. وأضفت إلى حقوقى عليه حقا جديدا.

بابا العزيز

أنت تتهمنى بالأنانية - نعم إنى أنانية معك لأنى أشعر أنك الإنسان الوحيد الذى سيتحملنى ويحبنى كما أنا، فأولادى يحبوننى إذا أنا سامحت ولبيت وإخوتى إذا أنا جاملت واهتممت، وزوجى إذا أنا ساندت ورعيت. أما أنت فلا شروط لحبك فهو نعمة الله على، وأغلى ما أملك فى الحياة، فلا ترع إذا أنا طلبت وأخذت وأثقلت. إنه حقى عليك. اعتبره حقا مشروعا وأملى أن يبقى هذا

الحق لى دائما وأن أطالب به، فتجيب أولا تجيب. يكفى أنك هنا معنا تظللنا بعطفك وحنوك وتساندنا بجاهك ووجودك.

ومنى إليه سنة ١٩٦١

أبى

إن حب الأبناء هو الأنانية بعينها، هو حب أطالبك فيه أن تحبنى وترعانى، وأطالبك فيه بأن تحمينى من الناس والأيام. هو حب أطالبك فيه بأن تشركنى فى جاهك وفى مالك، هو حب أشعر فيه أن لى عليك حقوقاً أطالب بها.. فإن أعطيتها لم أشكر، وإن منعتها لم أيأس، إنه شعور جميل لا أجرؤ أن أشعر به لأحد سواك، فإن فى وجودك يا أبى حياتى، وفى قلبك أمنياتى.. وفى ابتسامتك سعادتى.. وفى جاهك عزتى واختيالى. هذا هو حبى.. فهل تقبله بصدقه وأنانيته؟

وقد أهدانى وشاحا من فراء نادر كرد على هذه الرسالة.. وإنى أتحدى توفيق الحكيم أو نجيب محفوظ إذا كان لأى منهما كتاب بأكمله قد أتى لهما بما أخذته أنا من كتابة صفحة واحدة.

ومنه إلى سنة ١٩٦٥

وصلنى جوابك الجميل ولازلت أؤكد لك أنك رزقت بصياغة وإحاطة فى التعبير لم يرزقها كثيرون (وكثيرون دى يدخل تحتها ثروت).

وعلى ذكر الرسائل أذكر أننا كنا يوما على شاطئ المنتزه بالإسكندرية وجاء أنور أحمد وقال لى وصلتنى اليوم من أبيك رسالة من لوزان وبها قصيدة.. فتعالوا إلى كابينة الدكتور الدمرداش أحمد لنسمعها معا.. والدكتور الدمرداش طبيب وأديب وذواقة، وقرأ علينا القصيدة، وهى عبارة عن غزل رقيق ومشاعر جياشة.. إلى أن وصلنا إلى البيت الأخير. ثارت نفسى على الرغم منى وهذه بعض أبياتها:

منذ عشرين وخمس رق يأسى واضمحلا
حين ألقيت على يأسى من عطفك ظلا
فإذا الدنيا عيون وغصون تتدلى
كان ظلما كل ذم قيل فى الدنيا وبطلا
إن أمثالك فيها حسنات تتلألأ
قلت أمثالك.. هل فى القيد أمثالك؟ كلا
لست حسنا يبهر الطرف فإن عاود ملا
إنما حسنك مما يطبى قلبا وعقلا
قد يراك الله من آلائه عزوجلا
جامعا فيك إلى الفتنة والعصمة نبلا
ولك النظرة يندى تحتها القلب ويصلى
وحديث هو أروى من طلا الخلد وأحلى
تلك عشرون وخمس هى عمرى ليس إلا

والواقع أننى ما أن سمعت البيت الأخير حتى شعرت بغصة فى قلبى وثارت مشاعرى. واعتبرته تعريضا بالسنوات الجميلة التى عاشها مع أمى. والتى لا تبارح مخيلته ولا تفارق وجدانه ورأيت أنه ليس من حق الوزن أو القافية أن يفرضا مثل هذا الكلام وقلت لمن حولى إن هذا البيت قد أثارنى، وعاد أبى من لوزان ولم أكلمه فى شأن القصيدة. كما هى عادتنا.. إلى أن قال لى يوما وأنا أساعده على ارتداء ملابسه «أنور قال لى إنك احتججت على آخر بيت فى القصيدة الأخيرة «فقلت» نعم «فقال مجاملا» وهل صدقت كلام الشعراء؟!»

سافر أبى إلى الكويت فجأة، فقد كان أخر سفره مرتين ليتمكن من إلقاء كلمة استقبال زميل دراسته مصطفى بك مرعى فى المجمع اللغوى ولكن الجلسة تأجلت لثالث مرة، فقرر السفر إلى الكويت بين يوم وليلة وكانت وزارة الإعلام قد دعته وتنتظر قدومه، ويسافر أبي وأرافقه إلى المطار ولأول مرة أنسى أن أكتب الورقة التي اعتدنا أن نتقاسمها قبل كل سفر.. مكتوبا عليها «لا إله إلا الله محمد رسول الله» فيذكرنى بها فأكتبها، ثم يختفى من أمام ناظرى، وبعد أسبوع يأتينا خبر من وزارة الخارجية هنا أن أبى فاجأته أزمة قلبية فى الكويت ودخل مستشفى المواساة.. فيجن جنوننا ونحاول أن نتصل به تليفونيا فيقال إن المكالمة لن تأتى قبل يومين فتعيينا الحيل، إلى أن كلمنا يوسف السباعى الإنسان الرقيق، الذى يفيض عذوبة..

فيقول إنه سيطلبها بنفسه وكان وزيرا للثقافة.. ثم يكلمنا بعد لحظات قائلا إن المكالمة ستأتى بعد عشر دقائق.. ولن أنس ما حييت اهتمامه بقلب اعتصرته اللهفة.. وسافرنا إلى الكويت عمى وزوجته وزوجى وأنا. وتوجهنا إلى المستشفى. واستقبلنا بابتسامة مرحبة عذبة، وكأن المرض لم ينقض على جسده.. ولم يتمكن من قلبه المرهف الرقيق.. ويقول لأخيه بصوت متهدج «ما الذى أتى بك وأنت لا تحتمل الحر» وتناوبت مع زوجة أخيه وهى ابنة عمته فى نفس الوقت. السهر عليه. كانت تمرضه بقلب يفيض بالحب وبنفس كلها قلق ولهفة، ولم تكن تغمض عينيها لحظة طوال الليل.. وكانت تقول لى: إن أباك عظيم حتى فى نومه، فهو فى أحلامه يتكلم عن الشعر والأدب والكتب.. وظلت معه تطمئنه وتخفف مما به حتى اضطرت اضطرارا للعودة إلى مصر والدموع لم تفارق عينيها، وسافر عمى وكانت ظروفه تحتم عليه أن يعود إلى القاهرة وانتزع نفسه من الكويت انتزاعا. وقد تصادف وجود محمد أباظة هناك لعمل فى الإذاعة وما أن سمع بمرض خاله حتى سارع إلى المستشفى ولم يبرحها حتى وصلنا وقد قضى معه ليلتين كاملتين هما فى الواقع أشد الليالى خطورة وقد وجد نفسه يخدم ويمرض كأحسن ما يكون التمريض وهو الذى لا يقضى لنفسه شيئا، ولكن الشدائد تطوع النفس للأمر الواقع. وقد توافد عليه أهل الكويت جميعا فزاره الحاكم وولى العهد والشيخ سعد ودعاه أن يكمل علاجه فى لندن.. غير أن حالته

الصحيـة لم تمكنـه مـن ذلـك.. وقـد أبـدى الشيـخ سـعد وهـو وزيـر الداخليـة والشـخصية ذات المكانـة الرفيعـة هنـاك اهتمامـا يفـوق الوصف.. وعرض أن يذهب إلى مستشفى الصباح لأن معداتها أحدث من المستشفى الذى أسعف فيـها ولم تساعده حالتـه علـى التغيـير.. وتقبلنا كل هذا الاهتمام بقلوب يملؤها التأثر والعرفان والشكر.. وزاره الوزراء والمذيعون الذين عرفوه من خلال أحاديثهم للإذاعـة.. والذيـن أرهقوه باعترافهم.. من زيادة الحفاوة به، ومهما فعلنا فلن نفى أهـل الكويت حقهم فقد أكرموا ضيافته واحتفـوا بـه بـدءا مـن الحـاكم إلى أبسط فرد منهم..

وقد طوقوا أعناقنا بالجميل والاهتمام والمجاملة.

وقد أحاطنا المصريون المقيمون هناك برعايـة صادقـة واهتمـام بـالغ وانهالت علينا المكالمات التليفونية من مصر وجنيف وباريس وتوالـت البرقيات من مصر والبلاد العربية، وأرسل محمود فوزى برقية رقيقة بصفته زميل دراسته وصديق شبابه، ولكن الجهات الرسمية فى مصر لم تحرك ساكنا، وهذا عتاب أتحمـل مسئوليته.. فـهو أولا مصـرى فاجأه المرض فى بلد غير بلده ثم هو ركن من أركان الأدب فى مصـر والبلاد العربية، وقد احتفت به الكويت.. واهتمت به اهتماما بالغا.. ولكن بلده؟ ماذا فعلت من أجله.. لا سؤال ولا حتى برقية استفسـار. أما السفير المصرى عز العرب أمين فقد اهتـم بصفتـه الشـخصية وهـو إنسان رقيق الطباع استحق فعلا حب الناس وتقديرهم هناك، وكانت

الإذاعة تذيع يوميا برامج شعرية سجلت بصوت أبى أو حديثا لـه أو أسئلة وجهت إليه وهو فى المستشفى. ومما أثر فى نفس أبى وصول ابن أخيه من باريس حيث يعد للدكتوراه.. للاطمئنان عليه.. وأشفق أبى على ميزانيته وما تحملته فى هذه السفرة وقد بقى محمود إلى جانبه ثلاثة أيام كان فيها شعلة من النشاط والحركة.. قام بالتمريض بدلا منا نهاراً وأما الليل فكان يترك لنا المسئولية وينام هو كالطفل ارهقته الحركة، وعلاقة محمود بعمه علاقة روحية أساسها الحب والإعجاب وقوامها الشعر والأدب، وهو يقول الشعر ويحفظ من شعر عمه الكثير، وعاد إلى باريس بعد وداع تكشفت فيه العواطف الجميلة، وبدا وكأنه الوداع الأخير.

وجاءت شقيقتى وزوجة أبى وبقينا فى الكويت شهرا بأكمله، وظهر من رقته أكثر مما نعرف.. فهو لا ينام طيلة الليل ولكنه لا يطلب شيئا.. ظنا منه أننا ننام.. ولا يطلب نهارا حتى لا يقلق راحتنا وكنا ننتزع منه الطلب انتزاعا، إلى أن قلنا له إننا لم نحضر من القاهرة لنرتاح وإنما جئنا لنتعب ونسهر ويرتاح هو، وكنا نتناوب السهر عليه.. أختى وأنا، وكنت فى الليلة التى أسهر فيها معه أقول له: «اطلب من أختى أن تعود إلى القاهرة فما حاجتنا إليها؟ ألا يكفيك أنا؟» «فيبتسم ويوافق على رأيى.. وإذا سهرت معه أختى وافق على نفس الاقتراح ولكن على أن أعود أنا.. فكنت أقول له: «إنك كالمتزوج من اثنتين.. توافق على رأى كل زوجة لتهدأ

أنت بالا» فكان يجيب: «إننى فى الحقيقة أريد أن تسافر إحداكما لأشعر أننى قريب العودة إلى بيتى»، وكان يقلقه المرض بعيدا عن بيته. ويخشى الموت بعيدا عن بلده. ولكن لا يقول ولا يبين.

وكنت إذا جافاه النوم ليلا. مسحت بيدى على جبينه وعلى كتفيه، وقرأت له آية الكرسى كما كنت أفعل لأولادى إذا توعكوا، وأظل أعيدها. وأخطئ أحيانا فى الشكل من كثرة التكرار. فيردنى فى رفق ويصلح الخطأ. حتى ولو كان قد أوشك على النوم، وكنت أعجب لذلك ولازلت.. وكان أحيانا يقرأ معى الآية بصوت نائم ثم يشير بيديه إعجابا بقوة الأسلوب كل هذا وهو إلى النوم أقرب.. لن أنس هذه الصورة.. لن أنساها ما حييت.

وفى المستشفى كان يسألنا كل يوم: «احنا يوم كام النهاردة؟» فنجيبه واعتقدت أن تكرار السؤال يرجع إلى أنه يريد أن يتعجل الأيام ليرى نفسه فى مصر. فى بيته. إلى أن جاء يوم ١٩ يونيو وهو يوم ذكرى وفاة أمى وسأل، وأجبنا. ولأول مرة أنسى هذه الذكرى بسبب مرض والدى ولهفتى عليه، ونام وظل يتكلم أثناء نومه.. ويسأل: هل تذكّر هذا الميعاد أحد فى مصر؟ هل زار قبرها أحد؟ وقضى ليلته يحيى هو ذاكرها، ومرت الأيام بعد ذلك ولم يسأل ولم يأبه للتاريخ. فقد كان يخشى أن تمر ذكراها.. ولا يذكرها هو، بذل الدكتور اندريه تاجر مدير المستشفى وجميع مساعديه ما فى وسعهم وهم يعلمون أن مجهودهم لن يغير من المقدر شيئا.. وظلت ابتسامتهم

مضيئة إلى أن نزلوا جميعا يودعونه يوم عودته على باب المستشفى مع شعاع الفجر.

وإذا تكلمت عن مرض أبى فى الكويت فلا أستطيع إلا أن أتكلم عن الدكتور عثمان خليل مستشار مجلس الأمة هناك.. فقد جمعته بأبى صداقة قوية نمت من كثرة ما تردد أبى على الكويت.. وكان يقصد إلى بيته بعد نهار كله مواعيد وارتباطات.. وكان يأنس إليه ويحدثه عن ذكريات شبابه.. ويتخفف مما به من حنين إلى السنين الخوالى، وقد تحمل الدكتور عثمان مسئولية كل ما يرتبط بمرض أبى.. وكان يأتى مع كبار الزوار بوصفه شخصية من الشخصيات المصرية البارزة هناك.. أو يستقبلهم فى المستشفى بوصفه قريب لأبى وصديق، وتحملت زوجته وهى ابنة عم أبى كل ما يتصل بالمرض من مسئوليات عاطفية، فكان بيتها بيته.. تشرف منه على راحته وتلبى فيه رغباته، حتى شعرت يوم وصولى إلى الكويت أننى لن أستطيع أن أفعل أكثر مما فعلت هى، واستمرت رعايتهم إلى اللحظة التى غادر فيها الكويت عائدا إلى مصر.

وعند وصوله إلى مطار القاهرة استقبله على باب الطائرة أخوه الأصغر ماهر أباظة، وكان قد رتب لهذه المقابلة ورافقه الدكتور عبد الله على فى سيارة المستشفى إلى منزله.. وعند صعودهما إلى الدور السابع توقف بهم المصعد. وتوقف قلب الأسرة بأكملها التى كانت فى انتظار عودته وظل المصعد فى صعود وهبوط مدة نصف

ساعة على الأقل، وهو هادئ لا يتكلم، ولكن الطبيب المرافق له لم يكف عن الصياح طالبا أنبوبة أكسجين خوفا على مريضه، وصل إلى بيته وقد أكرمه الله وأكرمنا بذلك.

فركوب الطائرة والسفر الطويل والمرض الجاثم على صدره، كل هذا قد أفقدنا الأمل في وصوله إلى فراشه سالما، ولكنه وصل واستجاب الله إلى دعواتنا. ودعونا كبار أطباء مصر جميعا.. الدكتور محمد إبراهيم - الدكتور عبد العزيز الشريف - الدكتور علي عيسى. الدكتور غليونجى. الدكتور أحمد إسماعيل. الدكتور حليم دوس.. دعوناهم وتضافرت جهودهم وتبدت عنايتهم واهتمامهم..

ونظرت حولى.. وإذا ببيته في الزمالك ملىء بأولاد أخيه وأحفاده كل منهم يدخل إليه ويحاول أن يخفف مما به.. كل منهم يتمنى أن يسهر وأن يتعب.. ويرى في ذلك أمرا مفروضا.. وإذا بأخيه أحمد لا يفارقه.. إلا ليسأل الأطباء عن حالته..

وكان أنور أحمد يأتي صباحاً ومساءً. واعتبر نفسه ابنا له. وتناوب معنا ساعات التمريض.. وإذا جاء ميعاد الغذاء تولى هذه المهمة الصعبة، فقد ظل أبى طوال مدة مرضه لا يقرب الطعام ولا يقربه النوم إلا دقائق، وحاول أنور أحمد أن ينقل إليه ما يدور فى الخارج، حتى يبعده عن الملل الذى استبد به، وكان يكلمه عن المسرح وعن رواية «قيصر» التى كان مفروضا أن يمثلها المسرح القومى.

وتأثر أبى تأثرا عميقا من رعاية صديقه أنور أحمد.. فقال لى: «الواحد يعمل لأنور تمثال من دم القلب» ولم أكن قد سمعت هذا التعبير من قبل فسألته إن كان تعبيرا معروفا فأجاب «بل انا الذى أقوله».

ونفذنا العلاج بدقة وأشرف الدكتور عبد الله وهو ابن أخته على تنفيذ العلاج ولم يفارقه لحظة، وترك بيته وزوجته وأقام معه، ورعاه بقلبه ودمه ودموعه، إلى أن فاجأنا القدر وأقول فاجأنا لأننى اعتقدت أن طول المرض قد أبعد شبح الموت ولكنه فاجأنا وكنت إلى جانبه، ومعى عبد الحميد أكبر أحفاده، وكان ساهرا إلى جانبه لم ينم.

وذهب الموت بالذى كنا نحتمل بوجوده مرارة الحياة، وحتى بعد ذهابه كان رفيقا رحيما عادلا كما عودنا، فقد ترك لنا رسالة. أراد أن نقرأها بعد وفاته، وتابعنا من هناك ونصحنا حتى وهو فى أكرم جوار، وهذه رسالته:

أحبائى

تقرءون كتابى هذا، وأنا فى أكرم جوار، وأى جوار هو أكرم من جوار الله قابل التوب اللطيف الحليم الذى عزت عظائم قدرته، ووسعت خلقه سوابغ رحمته، وإنكم لتعلمون أن الموت وهو الحق الخالد، مضروب على الأحياء، وإن كل مخلوق له لخالقه مآبا وإن

لكل أجل وإن تطاول كتابا وإننى لأومن أن الفراق فيه لوعة عارمة ومشقة قاصمة فاستعينوا عليه بما تطيقونه من تماسك وتجمل وصبر.. ذلك إنه لا يجدى فى تحمله إلا التجلد والتجمل والصبر. على أننى لست ألومكم على حزن يعتصر قلوبكم. ولكننى ألومكم إذا أفسد هذا الحزن عليكم سلامة التقدير وأصالة التدبير ومنكم من تؤدى شعائر الله خاشعة فى صومها وصلاتها، فلتذكرنى مترحمة فى صلاتها، ومنكم من لا تؤديها إلا فى قلبها الطاهر.. فلتذكرنى فى مكتوم زفراتها، ومسجوم عبراتها.. ولقد أومن أن لى عليكم حق التكريم فليكن تكريمكم هذا لذكراى نابعا من موردين كريمين.. أما أولهما فتجافيكم عن الدنية فإن الدنية مخبثة موبقة للكرامة أو القيم.. وإنها لتنقصنى كما تنقصكم.. وأما ثانيهما فسد المنافذ على الخلف يدب بينكم، فإن الخلف يهوى بأصحابه إلى منهار مشنوء، وعيش موبوء، وإنه كما يسقط بمكانتكم فى دنياكم الزائلة بين الأقوياء والمخالطين فإنه كذلك يسقط بمكانتى بين من خلفت بينكم من محبين ومقدرين وحاسدين، وإننى وإن كنت لم أورثكم شيئا يذكر من عرض الدنيا فإننى، وأرجو ألا أكون مخدوعا، قد ورثتكم سيرة أستطيع أن أقرر أن المآخذ عليها ليست كثيرة، فإذا هى كثرت فإنها ليست بالغاضة ولا الكبيرة وحسبى أننى لم أشرك بالله أحدا، ولم اضر من خلقه أحدا ولم أبطن لأحد حسدا ولا لددا، على أنى مع ذلك كله بشر من البشر له أخطاؤه وأوزاره.

وبعد.. فإلى لقاء بعيد الأجل إن شاء الله.. أسعدكم الله ورحمكم الله ووفقكم لما يحبه ويرضاه، وأقبلكم جميعا، إن ترك لى حساب الرحمان الرحيم فرصة لهذا التقبيل وإذا استطاعت فتواردت إليكم قبلاتى نافذة من بين ترابى المهيل.

ولست أعلم.. ولا يعلم حتى رسل الله وأنبياؤه بما يلاقيه الإنسان وهو ابن الموت بعد الموت.. وذلك علم الله وحده أحاط به تعالى وحده. ولكن الذى أعلمه علم اليقين أن الله كتب على نفسه الرحمة، وأنه خلق الإنسان ضعيفا، فلن يتلقاه إلا مشفقا عليه لطيفا.. ومسك الختام أن أدعو الله بدعاء رسوله محمد بن عبد الله.

«اللهم إن مغفرتك أرجى من عملى، وإن رحمتك أوسع من ذنبى، اللهم إن لم أكن أهلا لأن أنال رحمتك، فرحمتك أهل لأن تنالنى لأنها وسعت كل شىء يا أرحم الراحمين»

عزيز أباظة

مختارات من شعره

سنوات عشر

من «أنات حائرة» وبعد وفاة والدتى بعشر سنوات قال:

قالوا: لقد ضحك الحزين الأيم
الجرح يفغر فاه وهو مسمم
هل كان إلا كالخليفة كائنا
يطويه ناموس الوجود ويحكم
أخذوا بظاهر ما يرون فهل رأوا
قلبا يذوب واضلعا تتحطم؟
ومآقيا غرقى ونفسا يغتلى
فيها الضنى. ونفاثه تتضرم
مالى وللوائم أحسبى لوما
هم بين اطواء الجوانح جثم
أأثمت حين حنثت بالقسم الذى
أبرمت يوم هوى القضاء المبرم
أغويت يوم هفا إلى قلبى الهوى
فصغا؟ ومن فى قلبه المتحكم
ما أهون الانسان إن وفاءة
إما اتقاء أذى. وإما مغنم

عظمت على اخلاقه أكلافه
وهو المسير فى الحياة المرغم
نفض التراب الضعف فى أغراقه
وابن التراب الصاغر المستسلم
آنسته بالأمس يقسم جاهدا
والعجز يسخر منه سرعة يقسم
ويلى من الهول الذى يعتادنى
كالنار تنشج والرياح تهزم
فإذا الوساد كأنه متضرم
وإذا الفراش كأنه متذمم
وإذا الكواسر مقعيات جثم
وإذا الجوارح صاغيات حوم
وإذا الأفاعى الواغرات كأنها
اصطرعت على صدرى تفح وترزم
وإذا الطيوف كأنها من عبقر
هبطت توهج فى محاجرها الدم
فتقول: قد حنيت على جهنم
وأقول بل أحنى على جهنم
وأظل أسمع جمجمات عزيفها
وأكاد أفهم منه ما لا يفهم

ياصاحب القسم العظيم تملا الكبد

العظيم وما تراخى أعظم

وأقول حسبكموا فكشر ضيغم

عن نابه حردا وتضنضى أرقم

وأقول ماجرمى على بهين

لكن بحبى لها اتقدم

فيقول قائلهم تعست ألم تزل

تتحيف الحب السنى وتظلم

ما الحب وهو تهذب الدنيابه

إلا الوفاء أو الوفاء التوأم

وأدب للمصباح أشعله فما

ألفى سوى متندم يتندم

ما كان مسرحهن إلا نفسه

وضميره المتغلغل المتبرم

اغرته سابقة الهناء فانبرى

لنديه مثلها بتوسم

يا أخت منضور الشباب تحية

مطلولة فى آهة تتضرم

معناك قبلة ناظرى أو ورده

كالبيت يأنس فى ذراه المحرم

أرنــو إليــك وللحيــاة بقيــة
تنــهل فــى خلــل الدمــوع وتنســجم
ولكم دفعـت إليك صـــدرى حانيـا
فــى غمـرة الوهــم الـــذى أتوهــم
وأذبـت فـى أذنيـك حبــة مــهجتى
شـعرا تفجــر فــى ملاحتــة الــدم
فــإذا الرخــام الجــهم ناجيتــه
واذا الشــفائف مــا اضــم والثــم

ربيع العمر

يا ربيع العمر من حالى الصبا
شد ما هاج افتقاديك شجونى
يا ربيع العمر من حالى الصبا
من على فرقتك اليوم معينى
عهد لا أعرف للدنيا سوى
أنها مسرح لهوى ومجونى
يسفر الصبح فألفاه وبى
بهجة النفس واشراق الجبين
وإذا الليل دجا راحيته
اتخطى من حبيب لخدين
يعرض الهم فنجليه كما
يدفع الفجر أهاويل الدجون
وكأن العيش يختال بنا
بين أمواه وأيك وغصون
زال كالرشفة من كأس الطلا
راويا من حر بثي وحنيني
أين صحبى ولداتى ؟ عصفت
بالأعزين فجاءات السنين

واذا المـــــرء مضـــــت أترابـــــه
ذاق أو كـــــاد تبـــــاريح المنـــــون
ياربيعـــــا لم تكـــــن ميعتـــــه
غـــير هفـــهاف عطـــور ولحـــون
لـــــن يكـــــن الخلـــــد إلا صورة
مـــن ديـــــابيجك أو تلـــك ظنونـــى
ياعشـــياتى التـــــى أجرعـــــها
سـامدا[1] أدعـــم رأســـى بيمينـــى
زاكـــى اللوعـــة محمـــوم الجـــوى
واكـــف الأدمـــع مصـــهور الأنـــين
لا تقـــولى مـــــن أخـــو البـــث الذى
هاجنا.. من صاحب اللحن الحزين
النفـــــاثات نفـــــــاثاتى أنـــا

والشـــئون المســـتهلات شـــئونى

(١) حائراً

ذكريات الطفولة[1]

إنــى كلفــت بمــن أحـــب صغـــيرة
تــدلى بمــن تلقــى بكــامن ســــرها
جبلـت علـى حــب الإســاءة والأذى
ولطالمــا ضــج الــورى مــن جورهــا
تسـعى إلى الأوكـار إن سـكن الدجــى
وثبــا فتوقــظ ماغفــا مــن طيرهــا
وتقــوم إن شــاب الظــلام لروضـــة
غنـــاء باســـقة تحيـــط بقصرهـــا
فتــهيم بــين خضيرهــا ونضيرهــا
لتضــم ضاحكـــة بواكـــى زهرهـــا
وتصـوغ ممـا تنتقيــــه - حبــيرة -
عقــدا يــرف جمالــه فـــى نحرهــا
درجــت ســويعات الطفولــة حلــوة
أواه لــو رجعــت علـــى بســـحرها
تركــت بقلبـــى لوعـــة مــا تمحـــى
حتــى تــوارى أعظمـــى فــى قبرهــا

---

(١) نظم أبى هذه القصيدة يتحدث فيها عن ذكرياته مع أمى أبنة عمه.

إني سعدت بحبها وقنعت من

تلك النجوم الزاهرات ببدرها

وهويتها أصفى الهوى متغاضيا

عن بخلها متسامحا فى هجرها

ولكم أداعبها فأذكر جورها

الماضي فتنسب كل ذاك لغيرها

بيضاء يستهويك لاعب دلها

ويرد غيك رادع من طهرها

موسومة بالحسن يسطع وجهها

فى فاحم مسترسل من شعرها

يا نسمة الاسحار إن يممتها

فاستقبلتك ببشرها فى خدرها

فتحدثى عنى هناك وقبلى

محمر وجنتها وناصع ثغرها

قولى لها مضناك أسهده الهوى

فعسى يرق على موضع سرها[1]

---

(١) موضع السر هو القلب.

تسبيح الذبيح لـ ١٩٥٨

ايـه يـا ضيفـة الضلـوع هنيئـا
لـك قلبى مثوى وصدرى وظـهرى
في الذراعين فى الترائب فى مجتمع
العظـم هابطـا تحـت نحـرى
لم أذلـل لـك المنـازل أنـت اخترتـها
فـارتعى بـهـا واسـتقرى
سوف نمضى معا سبيلى. سبيل الخلق
مـا فـى اجتنابـه مـن مفـر
وتؤمـين أنـت غـيرى. وغـيرى
لتـهضى سـراج عمـر فعمـر
ياليـالى الوصـال موعـدك الحشـر
وأيـن الوصـال فـى روع حشـر
أكـذب الله لـو أقـول قضـاء الله
قابلتـه. بحمـد. وشـكر
لسـت أسمـو علـى النفـاق ولكن
مـا نفـاقى والله عـالم سـرى
رب غفرانـك الكريـم. ومـاذا
أنـت إن لم تغفـر آثـامى ووزرى
قـد خلقـت النفـوس ضعفـى وليـس
الضعـف معراجـها لفضـل وأجـر

أنت ذو الحول والسنى وأنا ذو
الضعف. أخفيه باجترائى وكبرى
أنت. ما أنت لا علم يسمو
لعوالى أسماك إلا بقدر
أنت ما أنت هذه الشمس والجواء
والأرض تحت عرشك تجرى
أنت ما أنت همسة منك تنشى
غيرها. كيف؟ أنت وحدك تدرى
لا أرانى ملاقيا غير حسنى
منك مهما أسئ. وصفح وغفر
إن فى جاهك العريض لمثلى
من برايا التراب ظلة بر
نحن إن لم نذنب فكيف تلذ العفو
تزجيه مغدقا غير نزر
يا بنياتى أخشعن لأمر الله
واصبرن كل صبر بأجر
لم أخلف مالا لكن ولكن
رب ذخر أسمى من المال ذكرى
وبحسبى إنى عففت فذاق الناس
عرفى وآمن الناس شرى

مهداة إلى

أم كلثوم

أضوى ولى من ظلك الكنف الرحب
وأظمى ولى من ثغرك المنهل العذب
أحبك ألوانا من الحب. لم تزل
تجدد. لا يهدا لظاها ولا يخبو
ترادفن في قلبي جوى غير مقلع
وبرحا. ألا ياشد ما حمل القلب
ولى فيك اجهاش الليالى. ومدمع
إذا كف غرب منه أعقبه غرب
وجنة مشتاق إذا شط النوى
وأنات محروم. إذا جمع القرب
ومحمومة من غيره ما تدافعت
بصدرى إلا قلت: زلزلت الهضب
أثبك تحت الفجر والكون هاجر
تسابيح نفس ملء احنائها عتب
إذا كان حب الناس سهدا ولوعه
وافئدة نهفو لأفئدة تصبو

فليس الذى ألقاه فيك من الضنى
ومن حرق تفرى الضلوع. هو الحب
بلى انه التقديس قد طهر الهوى
ترف كما رف الندى المونق الرطب
قصاراك منى. والدنا في. مدارها
تقلب حتى ما يقرلها جنب
أساكيب وجد فى الجوامح تنصب
وحز مدى بين الأضالع لا ينبو
وذمة واف. والوفاء مشقة
وما حسبى إن آدنى المرتقى الصعب
لئن لم أكن حسبا لنفسك. إننى
لا عتد نعمى العمر أنك لى حسب

المولد الشريف

اليـــوم ضـــاح والنســـيم رخـــاء

وتريــق فيــض روائـها الصحـــراء

وتـبرجت تحـت الظــلال وأشــرقت

كالمحصنـــات الكعبـــة الغـــراء

وشي الجــلال جمالهــا والحســن فى

حضــن الجــلال الفتنـــة العـــذراء

وقريش حول شيوخها وحديثـهم

نجـــوى إلى أربابـــهم ودعـــاء

ارزاء يــوم الفيــل إن عصفــت بــهم

فلقـــد مضـــت بهوائـــها الأرزاء

وتلـوح مـن خلــل البيــوت إليــهمو

أمـــة يغـــالب خطوهـــا اســتحياء

ودنت يشـــع على ذراعيهـــا السنى

القـــا. وتعبق حولهـــا الأرجـــاء

ومشت إلى الشيخ الجليل[1] وأومأت
للطفل وهو طهارة وسناء
هذا ابن عبد الله وابنك بعده
طابت له الأمات[2] والأباء
فتهلل الشيخ الحزين وضمه
«ياسين» من قد ضم و «الإسراء»
وضعته في أحضان يتم أمه
فاذا الأسى طاف عليه عزاء
ولدت كما تلد النساء فهن في
حمل. وفي عنت المخاض سواء
سنن الخليفة ليس في قانونها
عوج ولا في ضبطها استثناء
إن تخب نار أو تدك ركائز
فعوارض إن صحت الأنباء
ويقول جد الطفل للملأ الذى
جمعوا جموعهمو إليه وجاءوا
سموا الصبي محمدا فلعله
تسني المحامد فيه والآلاء

---

(١) عبد المطلب بن هاشم.
(٢) الأمهات.

لم يـدر أن المــهد يحمــل مرســلا
الأنبيـــاء ببعثـــه بشــــراء
ولـد الهـــــدى فالكائنات ضـــياء
وفــــم الزمــــان تبســـم وثنـــاء

الرفيق الأعلى

قــوى الانســـان واشــتد مطـــاه[1]
وتجلـــى مـــن. ســـنى الله ســـناه
وتوالـــــت أشـــــهر ناعمـــــة
طـاب فيـها العيـش واخضـرت ربـاه
لم يـــرع يــــثرب الا مــــرض
ســـاور المبعـــوث بـــالحق أذاه
شـــبت الحمـــى بـــه وقدتـــها
فتداعـــت تحـــت مســـراها قـــواه
فـــإذا أفضـــى إلى حاجاتـــه
حملتـــه فـــى عنـــاء قدمـــاه
رقرقـــت مـــن حبـــها زهـــراؤه[2]
ومـــن العطـــف فانســـته الســـقاما
ومضـــــت تمنحــــه عائشــــة
رحمـــة تنـــدى.. وأنســـا.. ولزامـــا
ولقـــد قامـــت صـــلاة فهـــوى
بعـــد أن غـــالب حمـــاه فقـــاما[3]

---

(١) مطاه: الظهر.

(٢) فاطمة الزهراء.

(٣) أى أنه قام فلم يقو فهوى صلى الله عليه وسلم.

قال: فلينهض أبو بكر بها
فاندبوه للمصلين إماما
أترى هل كان رأيا عابرا
أم هو العهد توخاه وراما
وأحس المصطفي أن الردى
ماثل فانهل بشرا. وابتساما
سيلاقي وجه من أرسله
رحمة للناس تسني وسلاما
يا رسول الله أكرمت الورى
فاذا الانسان للفضل تسامى
وبعثت النفس فيه حرة
تنشد الخير وتأبى أن تضاما
وجعلت العقل فيه مبصرا
بعد أن جلله القهر فغاما
واقتضيت العدل للحكم قواما[1]
وبسطت الحق للخلق عصاما
ونشرت الدين نورا وهدى
يكشف الحيرة عنهم والظلاما

---

(١) النظام.

يـــا رســـول الله أبلغـــت الـــذى
شـــاءه الخـــالق للخلـــق نظامـــا
وانتـــهت منـــك إليـــهم ســـنة
كرمـــت فـــى الله بـــدءا وختامـــا
قلـت: مـن كـف الأذى عـن غـيره
أمـــن النـــار عذابـــا وغرامـــا
والـــذى يـــأثم إلا مشـــركا
واجـد فـَــى رحمـــة الله مقامـــا
والـــذى يعفـــو وإن أذنـــب لـــن
يحِـرم الخلـــد مقـــرا ومقامـــا
والـــذى يســـتر عرضـــا كـــالذى
صبر النفـــس فلـــم يركـــب حرامـــا
والـــذى يبـــذل فـــى الله يـــدا[1]
والـذى أنعش فى الضيـق الكرامـا
والـــذى يدفـــع ظلمـــا. والـــذى
رد بأســـاء الأيـــامى. واليتـــامى
والـــذى يـــهدى مســـيئا فـــانثنى
عـــن أذى أوغـــل فيـــه فاســـتقاما

---

(١) يدا : معروفاً.

يغـــدق الله عليـــــهم كـــــالآلى

قطعــوا العمـــر. صــلاة وصيامـــا

رفـــــع الله إليــــــه روحــــــه

عــام أن ثبــت للديـــن الدعامـــا

أجـــل المـــــرء مقــــدور لـــــه

ثــــم يمضــــى. إن لله الدوامـــــا

حســبه وهــــو نبـــى بشــــر

أنــــه قــد أيقــظ الكــون. ونامـــا

ومن رواية «الناصر» هذه الأبيات التى كان يحبها أبى

وكان يطلب من ثروت أن يرددها له

غـدا تـتـرامى شـقة البعـد بيننـا

وأى عـذاب الله أقسـى مـن البعـد

غدا تحمـل الأمـواه رحلـى مجـاهدا

فتنهل عن دمعى، وتهتاج عـن وجـدى

غـدا يتنـزى القلـب كالسـفن أرقلـت

علـى مـتن رجـاف مـن المـوج ممتـد

غـدا تنطـوى نفسـى علـى كـل ساعر

دومـن عقـابيل الصبابـة والجـهد

غـدا لا يرانـى الليـل إلا مدلهـا

قليـل قـرار الجنـب متصـل السـهد

إذا وقعـات الدهـر ابلـين جدتـى

سلمت.. فلـن يبلـى وفـائى ولا عـهدى

مواثيـق مـن أعمـاق نفسـى قطعتـها

وأنت ؟ فمـاذا أنـت صانعـة بعـدى؟

بغداد

قالوا بلغتم. قلت: أفق الأنجم
ومدار كل مرجب ومعظم
لم ننأ عن وطن. ولا أهل أما
جرت العروبة بيننا مجرى الدم
قالوا بدت بغداد.. قلت: تدافعت
بغداد. بين تنعم وتقدم
وجعلت أشرع ناظرىّ كأنما
أشتف أقصى طلبة المتوسم(1)
فشهدت عرق العتق كيف أمدها
عبر القرون بعزة وتكرم
قل للنواسى العظيم الملهم
وأبى معاذ. والشريف ومسلم(2)
والطائيين الخالدين على المدى
من بليل غرد. وبحر خضرم(3)

---

(1) الناظر.

(2) أبو نواس وبشار والشريف الراضى ومسلم بن الوليد.

(3) البحترى وأبو تمام.

هاتوا من السحر الحلال أزفه
لسنائها القدسي سجدة مقدمي
إني أحج لها. وبين جوانحي
شوق كأنفاس اللهيب المضرم
وهبطت في بطحائها فكأنها البطحاء[1]
تسنى في جلال الموسم
وسعيت في رحباتها ودروبها
بخشوع معتمر وتقوى محرم
أمل يراوحني السنين قنصته
فلقيتها في مجدها المتنسم[2]
مزهوة الأعطاف زهو الصبح قد
أضفى سناه على الفضاء المظلم
بغداد. والدنيا الفتية كنتها
حين البلاد ولائد لم تعظم
قربت للأمم المشارع فارتوت
من فيضها المتدفق المتسجم

---

(١) بطحاء مكة.
(٢) العالي.

مـا بـين بصـرى. وكوفـى دعـت
أشـياخك النصحـى لنـهج أسـلم
هـذا رواق الأصمعـى ومثلـه
لأبـى عبيـدة مجلـس. والأسـلمى[1]
حجـج الزمـان معلمـو أمـم ربـا
فـى حجرهـم علـم ثـرىّ المنْجـم
العقـل قـد حررتـه ودفعتـه
فمضـى علـى غلوائـه لم يحجـم
هتك السجوف علـى الكـهوف وخاضـها
كـالهدى يقـدح فـى الضـلال المعتـم
نصـب الموازيـن الدقيقـة وانـبرى
ينفـى ويثبـت بـالدليل المعلـم
بغـداد لاسمـك هـزة سـحرية
فـى كـل مصـر. للعروبـه ينتمـى
هـو عـزة العـرب الكـرام. وفخرهم
لا فـرق بـني مزنـر ومعمـم[2]

---

(١) هو يحيى بن زياد الفراء.

(٢) يقصد بذلك المسلمين والمسيحيين.

إنـــى ســـألت الله جـــل جلالـــه

يحميـك مـن كيـد يحــاك مدمـدم[1]

ويقيـــك غـــدر عـــدوك المســـتلثم

ويقيـــك شـــر مســـيطر متحكـــم

ومخـــــــادع ومضلـــــــل ومحطم

ومذلـــــل ومقيـــــد ومكمـــــم

قـــرى علـــى كبـــد الزمـــان عزيزة

بغداد. واعتسفى سبيلك واســـلمى

(١) مهلك.

بشارة الخورى

قف فى ربا الخلد واهتف فى مقاصره
بشـاعر مــلأ الدنيــا كشــاعره[1]
سرى لـه أمــس والأمـلاك تقدمـه
فـى موكـب عـامر الإشــراق غـامره
البحــترى تــهادى عــن ميامنـــه
يختــال. والمتنبـــى عـــن مياســـره
يسـعى أمامـهما فـى قدســى هالتــه
شـوقى يـزف جديـدا عــن معــاصره
والخـــالدون الألى حلــت ذخــائرهم
صدر الوجـود. فرفـوا من ذخــائره
تحاشـــدوا لأخ كـــانت ترانمــــه
قيثــارة الشــرق. باديـــه وحـــاضره
قـالوا ظفرنـا بخـلاق الجمـال. زكـا
فى الأحرف الصـم وحيـا عـن خواطـره
بـــالعبقرى الملقــى[2] مـــن عبـــاقرة
والأوحــدى تعـــالى عـــن منـــاظره

---

(١) الأشارة للشاعر الخالد شوقى.

(٢) الملقى: الملهم.

وهشت الروضه الفيحاء ناشرة

في بهوها الزهر ترحيبا بزائره

الله دبج جنات النعيم لمن

تفيأ الخلق ظلا من مآثره

أدنى العباد له أوفاهم مددا

في فضله أو هداه أو بصائره[1]

وخيرهم. لا المصلى في مساجده

أو في كنائسه. بل في سرائره

ورادع نفسه عن شر ماضمنت

وخلقه عن مسئ من بوادره

والدين في روحه أو في سماحته

بنوة بين إنسان وفاطره

---

(١) جمع بصيرة وهى العقل.

الأخطل الصغير

لم أنــس آخــر عــهد لى بطلعتــه

وللــردى رفرفــات[1] فــى مقــاصره

والــداء محتكــم. والحــول منحطم

وأول النــزع يحبــو صــوب آخــره

وحولــه الله. يلقــى فــى عقيلتــه

من لطفــه السبمح. عـذراً عن مقـادره

تفيــض عطفــا وإيثــارا وخافقــها

يـدوب كـالكرم فـى راووق[2] عـاصره

فى منزل. لـو ضمير الشرق أنصفـه

لا عتـده الشـرق ركنـا مـن شعـائره

لم أنســه حــين أفضينــا لــه فمضى

يعتامنــا بكليــل الطــرف فـاتره

وقــال من أنت؟ فاستعرفت[3] فالتقت

لحاظــة ثم غامــت فى محاجـــرة

---

(١) رفرف الطائر: حام وأراد أن يقع.

(٢) الراووق: المصفاة والكأس.

(٣) أستعراف الرجل: عرف نفسه إلى غيره.

وقال هل كنت من صحبي؟ فقلت أجل
كصحبة العشب الظامي لماطره
وراح صحبي وهم مثلي ذوو نسب
بفنه. وبنو موسى وسامره
فطارحوه وشاقوا من جياهره[1]
فاهتز ينثر عقدا من جواهره
وعاد كالمرح النشوان. ثم طغت
عليه وعكة ذاوى الروح حائره
مارابه الدهر إلا زاده عظما
كالطيب يزداد طيبا في مجامره
ثم افترقنا وأدرى أن نازلة
ترقى إلى عشه الحالى وطائره
ونحذر الموت. لا نألو له حذرا
والموت أقرب شئ من محاذره
ياويحها ذكريات هجن بي شجنا
تظل روحي تلظى في هواجره
فما طرقن سوى نفس وذابحها
وما تركن سوى قلب وصاهره

---

(١) الجهير والجهيرة: من معناهما الجميل الأنيق.

اعدى عدوك سن صاحبت سقما

عدا عليها بغاث من مناسره[1]

ويح اجتماعهما. والموت أكرم من

عمر رمى الدهر فيه من فواقرة[2]

لم يرحم الشعر. والدنيا تضئ به

فى ذات صائغه الأعلى وخابره

أدال منه. ولكن عزه نغم

من السماء ترافت عن مزاهره

بشارة أنعم فجار الله أنت ومن

أرضى وأروح نفسا من مجاوره

قد كنت للدهر عذرا من معاذرة

بما ابتدهت وفخرا من مفاخرة

عارضتك اليوم. ابن البئر ناضبه

من مغدق زاخر الدفاع هادره[3]

وأين من جهده مستفعل فعل.

من ملهم مشرق الإبداع آسرة[4]

---

(١) المنسر: منقار الطير.

(٢) جمع فاقرة وهى الداهية.

(٣) السيل المندفع.

(٤) آسر الله الإنسان خلقه.

أضفى علـــى الأدب الريـان طابعــه
فــلاح مصــدر نــور مــن مصــادره
وكـــان مازفـــه للنـــاس رائقـــة
مـن الســلافه تنـدى عفـو خــاطره
إن ثار. قلـت الريـاح الهـوج عاصفة
أوقــرٌ. قلــت شـكا صـب لهــاجره
منمنم النسـخ يجـرى فـى ديابجـــة
من كـل معنى شفيف الـروح نـادره
يخـــال مـــن قربـــه للنفـــس إن لـــه
نظــائرا. وهــو عــال عـن نظــائره
تـهفو العروبـة مـن شتى مناكبـــها
إلى الرحيــق المصفــى مــن بواهـــره
فيـــا لهـــا نشـــوة مجـــت مدامتـــها
أقلامـــه وهـــى ربمـــا مـــن محـــابره
خواطــر الخلــق تســقيها مشــاعره
مستبهمات فتجلـــى فـــى مشــاعره
فيرســل القــول مأنوســا فيحســـبه
مـن صدقـه المـرء همسـا مـن سـرائره
بشـــارة أين: شـــوقى أين؟ هـــل لهما
من وارث واثب الإلهـــام ظـــافره

واحسـرتا زال عـن روض بلابلـه
فـأوحش الـروض. إلا مـن عصـافره
وود كـل نضـير فيـه مؤتلـق
لـو قـد تجـرد مـن افـواف نـاضره
بكى مع الأرز ساجى الورد وأنعطف الصف
صـاف يجلـى حـلاه عـن ضفـائره
والسوسن الضاحك انغاضت بشاشته
والـنرجس الفضـى أغضـى من نواظـره
حزنـا علـى نـاهل منـها عواطرهـا
يديفها[1] فـى الزواكـى مـن عواطـره
فـابكوا علـى الشـعر أمسـى دره بددا
وأسـوا لناديـه أقـوى مـن عبـاقره
بشـارة القيـم العليـا يكيـد لهـا
حـران كـل قصـير البـاع قـاصره
العجـز أو شـهوة البـانى بلا أسس
أو أنـه الجـدب فى أشـقى مظـاهره

---

(١) داف : مزج.

أو ثورة في طوايا النفس حاقدة
يصلي بها كل ضحل الجهد عاقره
أو أنه قلق. والعصر مضطرب
يمضى لكل سقيط[1] السمت صاغره
فهذه ذكر في زيها خنث
وذاك يخطر أنثى في غدائره
وتلك لوحات معتل يخط بها
مالوث الطفل عن ملتاث[2] خاطره
من كل رسم جهيض[3] غير ذى شية
وكل نقش بغيض اللون نافره
وتلك قصة ذى عقل رأى سفها
أن يعرى العقل فيها عن مآزره
يقول جددت. قل جددت فى هذر
والفج يعرف فجا فى بواكره
وزاعم إن صقل الشعر منقصة
ووزنه ناقص أركان عامره

---

(١) السقيط: الأحمق.

(٢) الأليتاث: الأضطراب.

(٣) الجهيض: المولود قبل موعده.

وأن علـوى موسـيقاه منتـهك

خدر العذارى الغوانـى من حرائـره

الشعـر مـا قلت. لا مـا قالـه نفـر

عـدوا علـى قدسـى ماضيـه وحـاضره

ثم استطالوا على الفصحى وحرمتـها

بـآمر مـن ذوى الضغـن غـائره

صالوا مجـاهيد فـارتدوا ومـا بلغوا

مـن فـارع الطـود إلاّ سفح حـاجره[1]

الله كرمـها فاختارهـا لغـه

لمعجـز محكـم التنـزيل بـاهره

تبقى على الدهر تسنى فـى مساجده

نـورا – وتنـهل هديـا عـن منـابره

لا فـن مـن غـير قيـد أو تواثبـه

فوضـى تطيـح بمحـض مـن عنـاصره

والقيد إن كان فـى فضـل نجـوت بـه

كعفـة المـرء. قيـد مـن كبـائره

يا شـاعر الشـرق في أفياء جنتـه

قم فاشـهد الشـرق في غاشي مخاطره

---

(١) حاجر الجبل: قاعدته.

قـد بـات لا تـتـراءى فـى عزائمـه
قـواه.. بـل تتجلـى فـى حنـاجره
وفـى الأهـازيج تجـدى عـن تضـافره
وفـى الهتافـات تغنـى عـن بواتـره
عجبـت منـه تغاديـه توافهـه
فيسـتثار.. ويلـهو عـن مصـائره
قدمـا ريـم الأفـاعى فـى بواطنـه
خلفـا. وشـهد المداجـى فـى ظـهائره
وانقـاد للجـهل واسـتهواه باطلـه
فجـرد الفضـل عـن عليـا معـايره
متـى يفيـق؟ فمـا ذل ولا ضعـة
كهونـه وهـو مسـتخذ لواتـره
الدهـر يومـا.. والأيـام. حاملـة
حظ الوجـود جنينـا فـى سـرائره
لقـد أرى والمنـى ترضـى وإن خدعت
طغـاوة النـور تسـرى فـى ديـاجره
رحلت عنـه وعـن عصـر هـوى خلفـا
فـى عـالم فخـره كـبرى جوائـره
يـهنيك أنـك نـاج مـن براثنـه
نفسـا وأنـت نـاء عـن أظـافره

طغى الضلال به حتى لأوهمه

إن الضراوة ضرب من دساتره

الحق للباطش الأقوى وإن سفرت

نياته عن خسيس الأثم غادره

ينقض ذئبا فما خلق برادعه

ولا اجتماع على شكوى بضائره

والأمر للجاهل المثرى بعسكره

والحكم أهوج فى أيدى جبابره

وبات حكامه باسم الشعوب كمن

سام الزمان هوانا من قياصره

منهم قبيل وأن أبدى محاسنه

ففى ضمائره ما فى ضمائره

وذاك يبرم عهدا. ثم ينقضه

وذاك ينفث سما عن منابره

تخاله سائس الدنيا وقاهرها

وهو المضرس فى أنياب قاهره

يانكسة العصر لا ولا ذمم

أليس حَملانه صرعى كواسره

لم تشف نزعته السفلى حضارته

بل زاف منها شعارا فى حواضره

حظ العروبة فيه حظ ممتهن
في يتمه بين جافيه وزاجره
متى يطالعنا عدل الزمان متى؟
وللزمان قصاص في دوائره
إن ينصر الله طاغوتا إذن فلقد
استغفر الله اغرى شر كافره
لبنان يا حجة للعرب. دامغة
بهتان كل دخيل الحقد واغره
وكل ساع بما يغريه من تهم
يبثها في المدوى من عفائره
إن يبتعث فتنة الأديان سقت له
تسامحا فيك يسمو عن نظائره
أو يذكر الحكم. قد القمته حجرا
فشعبك الحر قاض في مصائره
أو يذكر الميل عن نهج الحضارة لم
يعجزك دفع غوى عن بوادره
حضارة الشرق تجلوها يمازجها
مارقرق الغرب فيها من بصائره
ما بين طوديك رفت نهضة عمم
أجد شعبك فيها مجد غابره

وعزة الشعب ليست في تكاثره

العقل أجدى عليه من تكاثره

لبنان يا فخر هذا الشرق عشت له

في ركب حاضره إنسان ناظره

يا صائغ الحسن في أبهى وسامته

ورافع الوعي في أسنى منائره

من كل غيداء ريا من صباحتها

وكل يقظان رحب الوسع ثامره[1]

وباعث الأدب العالي برشح من

فصحاه في عبقري من مآزره

وناشر الروح والتهذيب في لغة

صحيحها طم دهرا في مغادره[2]

سعدت. كم لك في أيد مقبلة

على القريض أضاءت في جواهره

فصادح في رباك الخضر ذو طرف

ونائح يتغنى في مهاجره

---

(١) ثامر الشجر: الثمر.

(٢) المغادر: الكهوف.

يقــول وهــو رغيد العيش فى بلـــد

لم تعــرف الأرض أبهى من حواضره

لبنــان أيــن عليــل مـــن نســائمه

النشوى. وأيــن حبيـب مـن دسـاكره

وأين حـور حســان مـن مـهائره[1]

تشرفن فـي حاليات مـــن ســوامره

وأيـــن أثـــداء تفـــاح بدغدغـــها

طـل الصبـاح فـتزهو فـى تباشــره[2]

وأيــن مــاء كــراح الخلــد تســكبه

عيونه النجـل[3] مـن صـافى مصـادره

نـأى عــن الــدار فانــهلت روائعــه

عصارة القلــب مـاجت فـى محـاجره

لبنـان.. لســت المعــزى إنــها أمـم

فى الشرق تأسى له فــى نـاى شـاعره

لم يطـوه الموت. أن الموت أعجـــز من

أن يطـــوى النور يســنى فى ســوائره

---

(١) جمع مهيرة وهى حسناء يغالى فى مهرها.

(٢) تباشر الصباح: أوائله.

(٣) النجل: الواسعة.

كم ماثل هو ميت في مقاصره
وراحل هو حي في مقابره
هذى نفاثة محزون أخى مقة
يذيبها عبرات من مشاعره[1]
بادلته الود مخضلا وكنت له
فى جرحة اللطف ندى وقد ناغره[2]
والله ما روعت مصر وقد منيت
بكل خطب شديد العرك جائره
بمثل مالقيت يوم انتقالك من
هول رماها بوادى البرح ثائره
اهرامها نكست هاماتها جزعا
واجهش النيل عن مسك هامره
فاذهب كما مال قرص الشمس ضم إلى
شكران ذاكره.. إكبار شاكره

---

(١) المقصود قصائده السائرة على كل لسان.

(٢) إذا اغتلى الجرح فهو ناغر

القصائد التى قيلت فى رثائه

عزيز أباظة

شعر صالح جودت

مـا عزائـى فيـك يـا خـير عـزاء
منـذ أن غـاب أمـير الشـعراء
لم تـزل تسـعى إلى سـدته
بعـد أن عـز عليـها الأوليـاء
فتسـنمت إليـها دائبـا
صيـب الإلهـام موهـوب العطـاء
تمـلأ الدنيـا نشـيدا رائعـا
يتلقـى مـن فـم الدنيـا الثنـاء
وتصـوغ المسـرحيات التـى
لبـس المسـرح منـها الخيـلاء
وتقـص السـيرة الحسـناء فى
خـير زلفـى لأمـير الأنبيـاء
فـاض منـك الشعر، رومـى الشجى
بحـترى الـروح، شـوقى البنـاء
طـاوعتك الشـاعريات التـى
لم تطـع فـى الشـعر إلا الأمـراء

إنمــا الشــعر المصفــى دولـــة

لم يــزل فيـــها الســراة الكـبراء

لم تزلزلهـــــا انقلابـــــات ولا

هزهــا ســيف ولا شــقت دمــاء

غــير أن المحنـــة الكــبرى بـــها

مــا جنـــاه المحدثــون الأدعيـــاء

أنكـــروا الأوزان فـــى روعتـــها

والقوافـــى البلبليـــات الغنـــاء

فـــى زمـــان عـــابث يطربـــه

هـــذر المـــرد ولغــــو اللقطـــاء

سوف يبقى الشعر فى سفر العلا

ويولـــون مـــع الريـــح جفـــاء

يخلـد الشـعر علـى الدهـر كمـا

تخلــد الأديــان بعــد الأنبيـــاء

انمــا يمكـــث فـــى الأرض الـــذى

ينفــع النـــاس ولا يبقـــى الهبــاء

يـــا عزيـــز الشـــعر همـــى أننى

لم أشــيعك وقــد حـــم القضـــاء

جـــــاءنى ناعــيك فى مـــغترب

أتشـــــهى فيه من مصــــر الــــهواء

علـــه يحمـــل مـــــن أنبائـــها
نفحـــة منـــك وبشـــرى بالشـــفاء
بعـد أن فتـك فـى حضـن الضنـى
واهـن الشـريان ملـــهوف الدمـــاء
فـــإذا النفحـــة شـــجو وأســـى
واذا البشـــرى حـــداد ورثـــاء
فنـــزفت الدمـــع حتـــى خـــاننى
فتســـولت دمـــوع الغربـــاء
قلـــت مـــن شـــعرك فاســـتبكيتهم
وأجـل الشـعر مـا يوحـى البكـاء
قلـــت مـــن أنـــاتك الحـــرى على
حـــرة منـــزلها دار البقـــاء
لـــك فـــى فرقتـــها ملحمـــة
أصبحـت سـلوى الأيـامى التعسـاء
هـــى لـــو تملـــك أن تســـمعها
شـــقت القـــبر وخفـــت للنـــداء
عشـــت فـــى محنتـــها مضطرمـــا
نـــابغى الليـــل مســـود الـــرداء
ثـــم مـــر الزمـــن الآســـى علـــى
جرحـــك القاســـى فأرقـــا وأفـــاء

وتفتحت على الصوت الذى

يوقظ القلب ويشفى البرحاء

حين هشت لك أنفاس الهوى

فتنفست بهن الصعداء

وتعطرت بنيسان المنى

وتقشبت بألوان الرجاء

فإذا ليلك بالنور اكتسى

واذا قلبك بالحب أضاء

واذا من كان يغلو فى الأسى

هام بالصبوة حتى الغلواء

وبنيات على فجر الصبا

يتأزرن بأحزان المساء

لم تزل فيهن من يوم النوى

لوعة اليتم وتذكار العناء

قلن ما خطب أبينا بعد ما

غاله فى أمنا عصف القضاء

فبكاها وبكاها ومضى

حزنه أمثولة للأوفياء

فتوسلت لهن ارحمننى

يابنياتى، أن الحب داء

يابنيـــاتى مـــن ذاق الهوى
قدســيا، لم يجــد عنـــه غنــاء
إن رجوتـــن لنفســـى راحــــة
فــالهوى والشــعر ســلوى وعــزاء
أو تمنيـــتن لى مجــــدا، فمـــا
مســلكي للمجــد، والقلــب خــواء؟
أو تلمســـتن بعــــدى تركــــة
ليــس بعــد الشــعر عــز وثــراء
عمركــــن الله، ماشــئت الهــوى
ببمينـــى، غـــير أن الله شـــاء
يابنيــاتى، مـــن روح الهـــوى
يولــد الشــعر ويحيــا الشــعراء
يــابنى العصــر الــذى نحيــا بــه
وهـــو علـــم وابتكـــار وذكــــاء
لا تقولــوا شــاعر مـــات، ومـــا
قيمــة الشاعر فـــى عصــر الفضــاء؟
قيمـــة الشـــاعر فـــى أمتـــه
أنـــه يفتـــح أبـــواب الســـماء
أنــــه يــــزرع ألــــوان المنى
أنـــه يبـــدع ألحــــان الغنــــاء

أنـه يجعـل للعمـر شـذى
أنـه يمنـح للـروح الضيـاء
أنـه يعـزف موسـيقى النـهى
أنـه ينشـر فـي الأرض الصفـاء
أنـه يحنـو علـى أوطانـه
أنـه يلعـن ظلـم الأشـقياء
أنـه بالشـعر يـهدى قومـه
للطريـق الحـق والـرأى السـواء
أنـه بالشـعر يـروى للـورى
سـير النصـر وأمجـاد الفـداء
أنـه التـاريخ، يبقـى صادقـا
أن روى التـاريخ زيفـا وادعـاء
أنـه الحـاضر يحيـا نابضـا
وطنـى الشـدو قومـي الدعـاء
أنـه المسـتقبل الحلـو الذى
ينشـد الخـير ويدعـو للرخـاء
أنـه لـولا رسـالات الهـدى
كـان فـي أمتـه كالأنبيـاء
فـي رحـاب الله مـن كنـت لـه
أقـرب الأخـدان نـهجا وانتمـاء

لم تـزل فـي نـاظرى مـن سمتـه
قامـة مرفوعـة بالكبريـاء
ومعانـاة يداريـها الرضـا
واحتمـال يتغـذى بالإبـاء
وتحـد لصـروف عاشـها
يحمـل المحنـة فـي غـير انحنـاء
فـي زمـان نحـن أحسـنا لـه
ولقينـا مـن سـنمار الجـزاء
قـلّ مـا سـر بـه، لكنـه
كـان مـا أكـثره فيمـا أسـاء
إن قضـى الأحـرار فيـه فلـهم
فـي رحـاب الله أجـر الشـهداء
يـا أبـي، بـل يـأخي، بـل يـا أنـا
أنـا مـن مـات، فللشـعر البقـاء

عزيز الشعر

شعر سعيد عقل (بيروت)

شعر ولا أنت؟.. في بردى انضني ألم
عملاق مصر، تطلع، وانحنى هرم
راثٍ انا اليوم؟.. دعني من رثا وبكا
نار ببالى وفاء كنت اعتزم
قالوك تكمل خطا؟ ويحهم خطلوا
في غفلة الوحي، أنت الطور والكلم
الشعر بعدك صار الشعر، ردده
من رأسه فوق، من لم يغره غنم
اثنان أهواهما: نبل بشعرك لم
يتعب ، ولبنان منه تتعب الأمم
سكرى بشوقي أو إلى غير ذى شيم
وقول شوقي بزحل[1] السكر والشيم
هنا الهوى شد بين الأميين، هنا
في الشرق ، ما نسمت قبل الهوى نسم

---

(١) إشارة إلى قول شوقي:

أن تكرمي يا زجل شعرى أنني نكرت كل قصيدة الاك
أن الخيال بديعه وغريبه الله صاغك والزمان رواك

لكن شعرك أنت، الشعر يعبده
معى، ونغوى انا والليل والنجم
ما أمروك؟.. أخال التاج ضللهم
وجاء جبهتك الشماء يستلم
حملت غصنا من الأرز، استظل به
أو رعمسيس أو الوقاد من عظموا
أو من نماهم ثرى لبنان، مبتدع
البداع: من نثروا الدنيا ومن نظموا
به ألف جبينا لا الشموخ حكى
أغلى، ولا العود وفاه ولا النغم
طوقت جيدى بأنى «عقل أمتنا»
يعل من سحرى «الإثبات والهيم»
كلامك السيف، ها بالسيف ترسله،
والاصطكاك سكوت عنده القلم
بديع رصفك، فيه أنت: قامتك
الغيناء، صدرك، صدق العزمة: الشمم
وفيه من أسرة قلت الرماح نمت
قوما، وقلت بخيل طارت الهمم
مصر تنشئ. ما القوقاز أنبته
منها الحضارة، منه النبلة الحكم

ما الشطر من بيتك الملآن غير صدى

لكـسرة عبرهـا الأعـداء تنـهزم

حتـى اذا رد شـطر آخـر لمعـت

أهزوجة النصر يغوى فوقها العلم

أما القصيدة، مما رحت تعمـره،

فالـبرج ماد كمـن بـالأفق يصـدم

يقـول إن ابتـهالا سـر فتنتـه

وأن دفا على بـاب السـما الحكم

غنيت لبنى، البنى غير من هجرت

لتسكن الدمع فـى عينيك ينسجم؟

لنجمـة الصبح ودت لـو تكون لهـا

بديلـة وعليـها الشـعر ينـهدم

واريتها لا بترب، بـل بـورد ضحـى

والحـب حبـك ورد بالشـذا بـرم

وفجر الدمع فيك النبـع مصر، ردى

نيـلا من الشعر يانيلا هـو الكـرم

بمصـر حببـت الدنيـا فكيـف اذا

راحت على الريشة الخضراء تضطرم؟

أقول: كتـب إلى نجم تنشـد فطـر،

حدوث، والعب كمـا لم يلعب القدم

عملاق مصر، قوافيك الكبار بنا،
بنبلها مايزال الأرز يتسم
ومن أنا لأرد اليوم بعض ندى؟
صم قوافى فى رد الندى بكم
إن شاعر هام بالنيل انتشت قمم.
فى أرضنا، أو تصبى مادت القمم
مصر هى المجد، كان المجد مذ طفرت
فى البال، فالكون أذن بعدها وفم
أو لو النهى الصيد نادتهم هياكلها
وعلمها رفد الصيد الأولى علموا
غاو بها شرف الانسان، ما خذلت
عصرا، وغاو بها ذو الريشة العرم
أن ضامها الضيم مس الخالقين دنى
أو نالها الظلم راح الحق يظلم
لبنان نحن.. وها نحن الشهود لها
ندين يوم انتصاف، ليس نتهم
الحب نحن شرعنا الحسن نحن بدعنا
البعض نحن قطعنا أنه العدم
جبيل قالت بقاء النفس واكتشفت
ربا أبى لقضاء السيف يحتكم

الليـل لـولا سـراها غربـة قتلـت

والشمس لولا هواها وهـى مـن وهموا!

بلى، جراحات مصر فى مضاجعنـا،

فى الروح يسخى بها، فى العظم ينثلم

فى الريح فى غضبات الغيظ، فى غدنـا

فى مبتغى ما ابتغى الأبطال إن هجموا

ما لم تـزن مصـر وزن الحـق يبـق دم

علـى الضمير ويبقـى أن يـراق دم!

أطللت منك على التـاريخ، رنحنى،

همى كما الضوء فى بالى، كمـا الديم

.ويعطـر البـال أن يمسـك عطـر يد

مسـت بنفسجة أنفاسـها حـرم

لم لا؟ وفى القصص العـالى الـذى نسجت

غزارتـاك استجدت سحرها النظـم

غدا الهوى بدعـة، مـرا ببـال هـوى

وسكر عقل علـى القرطـاس يرتسم،

وآيـه طرفـت حتـى ليرشـقها

غيـان إن أنـا ضليـل ولى جـرم

بالكأس أفديك، بالدنيـا، بسـاجعة،

بلـوز نيسـان للزينـات يبتسـم،

بالشعر بالمنتهى بالمجد أشعلني
بحط عيني بعين الحق ألتهم
حتى إذا لاح لى أنى وهمت همت
منى الشجون كمن أفلاكها السدم
رفيق شطرة عمر، ذاكر ولها
بشعر مطران والألباب تحتدم
اسمعتك المرتجى. ما كان؟.. دع خلقى
للصمت، لا شرف إلاك، لا ذمم!
مازلت منها كما بوح النسيم لمن
من النسيمات تشقى وهى لا علم:
مرى بدارتنا يا طفل وانحطم
على بساط من النسرين ينحطم
بهديك الريح تنأى، أنت مرتحل!
بقدك الشوك يدمى، أنت منتقم!
إن كان بالهزج من صبحيك لا أمل
فعند خَصرك لم لا يصدق الحلم
حتى إذا يندرى شعر وكنت غوى
تململين، وآه القول والقسم
تهم شمس بأن تغشى فأمنعها:
ضيعى معى، ياضياعى، وأحل، يا ندم

وتسألين: لمن سهدى، بمن وجهى؟
ياقاطف الشمس، أكمل أو أنا الرمم!
وننتهى ننتهى فى قبلة ولهت
وفوق يغمز فينا بلبل رنم
شئ عن الشعر هذا، استله كلف
بالشعر، أم سكر صب ليس يحتشم؟
فلنبقه بيننا سر الكئوس، بها
يمر هاو فيدرى أنه الجمم
عملاق مصر، إذا أعوزت فى خلد
فضم من خلدنا ما شاءت الضمم
من زهر لبنان خذ عرشا ومن قيم
لا زهر لبنان منان ولا القيم!

فى رثاء عزيز الشعر

شعر: عبد الكريم الكرمى
(أبو سلمى) فلسطين

وحملنـــا مــن فلســطين الجراحـــا
ألســنا فـــى المــهرجانات فصاحـــا
وشــطايانا اللواتـــــى انتـــثرت
قـــد عصبناهـــا وشـــاحا فوشـــاحا
جلـــت الثـــورة أيـــام اللقـــا
جبـهات، تفضـح الشمس، صباحـا
وغــــدت أشــــعارنا صامتـــــة
أنــها فـــى صمتــها أمضـى سـلاحا
يـــا فلســطين أتينـــاك علـــى
صـهوة الجـرح، رعــودا ورياحـــا
تقـف السمراء فــى سـاح الوغــى
تتحــدى الأسمــر النــدب كفاحــا
حســـبوا أن رمـــاحى انكســرت
إن لى فـــى كــل ميــدان رماحـــا
كلمـــا حطــم لى الدهــر جناحـــا
مصر مـدت لى علـى الأفــق جناحــا

شيع الشعر عزيزا وبكى
خلقا فيه ونبلا وسماحا
لا عروس النيل فى موكبها
لا ولا موكبها زف الملاحا
لا الليالى خافقات بالسنى
لا ولا النجم على الموج استراحا
لا الرياحين على الشط زهت
لا ولا الورد بسر العطر باحا
وانثنى الفارس عن رايته
وارتمت تملأ دنياها نواحا
يا عزيز الشعر من بعد النوى
لم نجد للشعر فرسانا وساحا
الحروف العربيات انطوت
والهجينات تصدرن المراحا
هانت الأنفس فالشعر غدا
مرتعا - مثل بلادى - مستباحا
أرضنا أرضك يا مصر وقد
بسطت فوق ظلال الخلد راحا
ونسيمات الربى ما اختلفت
والنمير العذب مازال قراحا

وغرسنا الشوق في كل ثرى
ورعيناه غدوا ورواحا
وسقيناه معا، من دمعنا
وغذوناه إباء وطماحا
وحد التاريخ فيما بيننا
والدم الحر الذى روى البطاحا
فتراب ومصير واحد
أين من يقطع أوشاجا صحاحا
كل يوم قطعة من كبدى
تتشظى وبها الموت أطاحا
لى في كل المناحات أخ
لم يجد قبرا ولم يلق أقاحا
وهوى السيف المدمى عاريا
دون غمد، والردى رد الجماحا
لم تشيعه بقايا أدمعى
لا ولا توديعه كان متاحا
والرفات المستجيرات ألم
تسمعوا منها عويلا وصياحا
شهداء قد كساهم ربهم
نضروا روحا وردنا وصياحا

وهـــم فـــى كـــل درب شـــعل
أطلعـت مـن ظلـم الليـل صباحــا
ظـل لـمـن أعفـوا علـى الـذل الا
بئس من كـان عـن العـز أشـاحا
باسـم شـعبى حكمـوا لكنـهم
ظلمـوه ثـم يرجـون فلاحــا
تـاجروا بـاسمي وبؤسـى ودمـى
ثـم بـاعوا وطنـى بيعـا سماحـا
أيــها اللاهــون بالميســر
لا تجعلـوا أرض فلسـطين قداحـا
ذرة مـــن وطنـــى فيــها الدنى
أيـن مـن يبغـى بديـلا أو براحـا
أى فـــك لبنـــى العـــرب إذا
لم يفكـوا مـن فلسـطين السـراحا
أيــها الحــر الــذى فارقنــا
أنّ للقيـد علـى الأرض اجتياحـا
أيــها الصــداح مــا الــروض إذا
كنـت لا تمـلأ جنبيـه صداحـا
أيــها الشـاعر مــا الحفـل إذا
كنـت لا تسـقيه مـن شـعرك راحـا

لا يضئ النــــور فـــى الجمـــع إذا
لم يكـن منـك الجبـين الطلـــق لاحــا
مثـــل زيتـــون بـــــلادى، خـــــالد
شعرك الغـض اخضـــرارا واتشــاحا
يــا عزيــز الشـــعر مازلنـــا علــــى
عـــهده، نعتنـــق الـــود الصراحـــا
اينمـــا ســـرنا، علـــى أعطافنـــــا
عبــق مـــن شــعرك المعطـــار فاحـــا
أنـــت دافعـــت عـــن الحـــرف فلـــم
يــهو فــى الوحـل ولم يولــد ســفاحا

إلى عزيز أباظة

شعر: محمد التهامى

نـــام العزيـــز ولم ينـــم ســـلطانه
بـــل راح يســـتبق الحيـــاة بيانـــه
والشـــاعر الخـــلاق يغـــرس عمره
فيطـــول فـــوق ذرا الوجـــود زمانـــه
تتواكـــب الأجيـــال دائبـــة الخطـــا
وتظـــل فـــوق رءوســـهم أوزانـــه
يتفيـــأون مـــن الهجـــير ظلالهـــا
وتضمـــهم زمـــن الربيـــع جنانـــه
وإذا اســـتباح الزمـــهرير حياتـــهم
فمـــلاذ دفئـــهم الرحيـــب حنانـــه
وعلـــى دروب الحـــب يلمـــع صوتـــه
فتضـــيء فـــى ليـــل الهـــوى الحانـــه
وإذا جـــراح العاشـــقين تنـــاوحت
واســـى جـــراح قلوبـــهم تحنانـــه
وإذا تفـــرق شملـــهم وتنـــاثروا
ضمـــت شـــتات جموعـــهم أحضانـــه
وإذا اســـتطال الليل فـــوق ربوعهـــم
يدعـــو إلى الفجـــر القـــريب أذانه

وإذا تــهاوى للضــلال فؤادهــم
يــهدى إلى رحمانــهم ايمانــه
وإذا تنكبــت الطريــق جموعــهم
يومـى إلى النـهج القويـم بنانـه
وإذا دهـى الأوطـان كيـد عداتـه
عــزت بظــل نشـيده أوطانــه
وإذا اســتنام الغــافلون لظــالم
لذعـت مضـاجع نومـهم نيرانـه
وإذا وحـوش الغـاب سـيطر حكمـهم
غلـب الوحـوش وردهــا انسـانه
هــذا تــراث الخــالدين وبينــهم
يــأتى العزيــز ويسـتقر مكانـه
لم يعـرف القـول الجـزاف بـل انتقى
فأضاء فـى صـدق الشـعور جمانـه
وأقـام فــى حلــو الحيــاة ومرهــا
مـا اهتز فـى وهـج الصـراع كيانـه
زادتـه فـى الأقبـال حلـو تواضـع
حـين اكتـوى بغرورهـم أقرانـه
ورأتـه عنـد البـأس أكـرم فـارس
يضـوى بليـل الحادثـات سـنانه

ويقـــول مـــا يلقـــى بقـــدرة ملـــهم
مــا خــان أعمــاق الشــعور لســانه
فـــى حبـــه ووفائـــــه أســـطورة
نطقــت بصــدق حروفــها أشــجانه
وأدارهـــا ســـفرا يصـــوغ مـــداده
قلــب الحبيــب تذيبــه أحزانــه
أناتـــه الحـــرى ســـقت أكبادنـــا
جمــرا عليــه شــواظه ودخانــه
واشـــتد مصقـــول المشـــاعر قـــادرا
يجـــرى وراء غبــاره اخوانـــه
فلـــه بدنيـــا الشـــاعرين صـــدارة
ووراء طلعتـــه مشـــت فرســـانه
يرتـــاد آفـــاق البيــــان مظفرا
فيـــه فكـــل فنونـــه ميدانـــه
يلقـــى كريـــم القـــول فـــى ميزانـــه
فـــيزيد فـــى وزن العـــلا ميزانـــه
قـــد روض الفصحـــى وأحســـن صوغـــها
فأضـــاف فـــى أمجادهـــا احســـانه
وأتـــاح للشـــعر الأصيـــل مكانـــة
عليـــا رســـت بســـمائها أركانـــه

فـــالمحتوى فيـــه النبـــوغ أصالــــة
وعلـــى مفاتنـــه اســـتوى بنيانـــه
وسرى الشـــعور الحـــى فـــى أنفاســه
نغمـــا يـــهز المنتـــدى فتانـــه
والشـــاعر الفنـــان فـــى أعماقـــه
ســـر الوجـــود وفـــى يديـــه عنانـــه
أوتـــى مـــن الالهـــام قـــدرة شـــاعر
يســـع الوجـــود ومـــن بـــه وجدانـــه
فـــيرى بعـــين الملـــهمين حقائقـــا
خفيـــت وتســـمع صمتنـــا آذانـــه
ويحـــس فـــوق الحـــس ثـــم يـــرده
شـــعرا يســـير بســـحره ديوانـــه
يسقى من الســـحر الحـــلال نفوســـنا
ولـــو أنـــه أوحـــى بـــه شـــيطانه
فنـــهيم نذعـــن للـــذى يوحـــى بـــه
ويظـــل يســـعد قلبنـــا اذعانـــه
هـــذا دعـــاء الفـــن عـــز نداؤه
هـــذى قيادتـــه وذا ســـلطانه
إن كـــان للشـــعب العريـــق حضـــارة
كتـــب الحضـــارة كلـــها فنانـــه

عزيز العرب

شعر: مبارك المغربى
(السودان)

لــك منـــى علـــى المــدى أعظــامي
يـــا مقيمـــا بقلبـــي المســـتهام
يا مطيـل الغيـاب فـى العـالم الرحـب
بعيـــدا عـــن عـــالم الأوهـــام
لــك منـــى ذمــاء نفســى يــا خلـــى..
وقلـــب قـــد صـــار بعـــض حطـــام
لم تـــزل روحـــك الزكيـــة تـــهدى
بلجـــة الوحـــى للنفـــوس الظوامـــى
لم يـــزل طيفـــها يطـــل علينـــا
كـــل حـــين.. فـــى رقـــة الانســـام
عبـــق كالصبـــا يضـــوع شـــذيا
كنــت فينــا أو صــرت بــين الرغــام
لهـــف نفســـى. أمـــا أودع خلـــى
ونجيـــى.. ومـــا أبـــل أوامـــى؟
غائب مالـــه الغـــداة رجـــوع
تاركا صـــحبه لـــذل المقـــام

لزمـــان مـــدى الحيـــاة عبوس
وقلـــوب علــى الــدوام دوامــى
أى رزء أشــد مـــن ذلــك الـــرزء
وأقســـى مـــن تلكـــم الآلام!
ايــه يــا مصــر: يــا مــراح خيـــالى
ورؤى خـــاطرى وملقـــى غرامـــى
كيـف أغــدو علـــى ثـــراك غريبـــا
بـــين أهلـــى ومجتلـــى احلامـــى
كنـت ألقـاك مسـعد الـروح والقلـــب..
فمــــالى ألقــــاك دون ســـــلام؟
وجـهك النضـر! مالـــه حـــال جــهما
بعــد مــا كــان مشــرق الابتســام؟
هدنـا الحـــزن مـــذ فقدنـــا «عزيـــزا»
فـــى كثـير مـــن المعـــانى الفخـــام
فى الندى في النقاء. في البر بـالصحب.
وفـــى خلقـــه النبيـــل الســـامى
فـى سمـاء الخيـــال فـــى الأب الفـــذ..
وفـــى موكـــب العـــلا والتســـامى
عبقـــرى زهــــا بمذهبـــه الشـــــعر
ونـــــادى لــــه بلا احجـــــــــام

صائـــــه مـــــن أذى الجديـــــد

زاهــرا خـــالدا علـــى الأعـــوام

لــن يضـير النظيـــم محـــض كــلام

قـــد أتـــى مبـــهما بغـــير نظـــام

أيـــــهذا الـــــذى تـــولى كريمـــــا

مسـرعا فـــى خطـــاه دون زحـــام

أيـن ألقــاك كــى أبثــك مــاعندى..

وأشـــكو إليــك حـــر هيـــامى

ســوف ألقــاك فـــى محيــا «عزيـــز»

صورة منك فى الشباب النـامى[1]

يـا شقيق الفؤاد.. يـا تـوأم الـــروح..

ويـــا ذاهبـــا بـــأقصى مرامــــى

أنـا مـا عشـــت أذكـر الخـير والفضل

وفيــــض الشـــعور والإكــــرام

لم تزل تزدهــــــى «عصــــارة قلبى»

بعد ما زنتهـــــا بأغلى وســـــام[2]

---

(١) عزيز الاسم الذى أطلقه الشاعر على ابنه وفاء للفقيد العزيز.

(٢) عصارة القلب: ديوان الشاعر الذى تفضل الفقيد بتقديمه عام ١٩٥٤.

الأمــس مضــى «بتوتــى» «وبــرى»
بـين نفح الربـى وهمــس الغمــام[1]
وليــــــــال كأنــــــــها أرج الخلد
تجلـــت فـــى المقـــرن البســـام
طالعتنا «الخرطـوم» مـن وحيـك الـثر
بســحر يفـوق ســحر المـــدام[2]
كــم لقــاء لنــا علـــى ضفـــة النيـــل
وشـــط «الجزيـــرة» المـــترامى[3]
بـين صحـب شـجتهم نـدوة الشـعر
فصــاغوا شــوارد الأنعـــام[4]
ذكريــات تعيــش فــى القلــب رمــزا
لصـــلات تبقـــى مـــدى الأيـــام
يا رسول القريض – يــا شاعر العـرب
وحـــادى البيـــان والالهـــام

---

(١) تربى وبرى والمقرن: أماكن معروفة فى ضواحـى الخرطـوم وبـها كـرم الشـاعر صديقه عند زيارته الأولى للسودان عام ١٩٥٥.

(٢) الخرطـوم: القصــيدة التـى حيـا بـها الفقيـد الســودان فـى زورتـه الثانيـة عام ١٩٥٧.

(٣) الجزيرة: الموقع المعروف بالقاهرة وبها دار الفقيد بالزمالك.

(٤) اشارة للندوة الكبيرة التى أقامها الفقيد للشاعر عام ١٩٥٤ ودعا اليها أساطين الأدب فى مصر.

ياسليل الوفاء يا عترة النبل

وصنو الحجي ونسل الكرام

ليتك اليوم بيننا تتملى

في صمود الرجال والاقدام

لترى العرب في مصافحة المجد

خفاقا وفي نداء الوئام

لترى النيل نضّر الله واديه

طروبا يتيه بين الأنام

فالشقيقان بعد طول التياع

واشتياق.. تعانقا في التئام

ذاك يا صاح ما دعوت إليه

فاستجابت له عرى الأرحام

إنما نحن كلما جد جد

لترانا أوفى الورى بالذمام

نحن رمز النضال في الموقف الضنك

وفي غمرة الخطوب الجسام

يا أخا الود والمروءة والبذل

سقى قبرك الغمام الهامي

نم هنيئا فقد غرست ثمار المجد

والمجد غرس كل همام

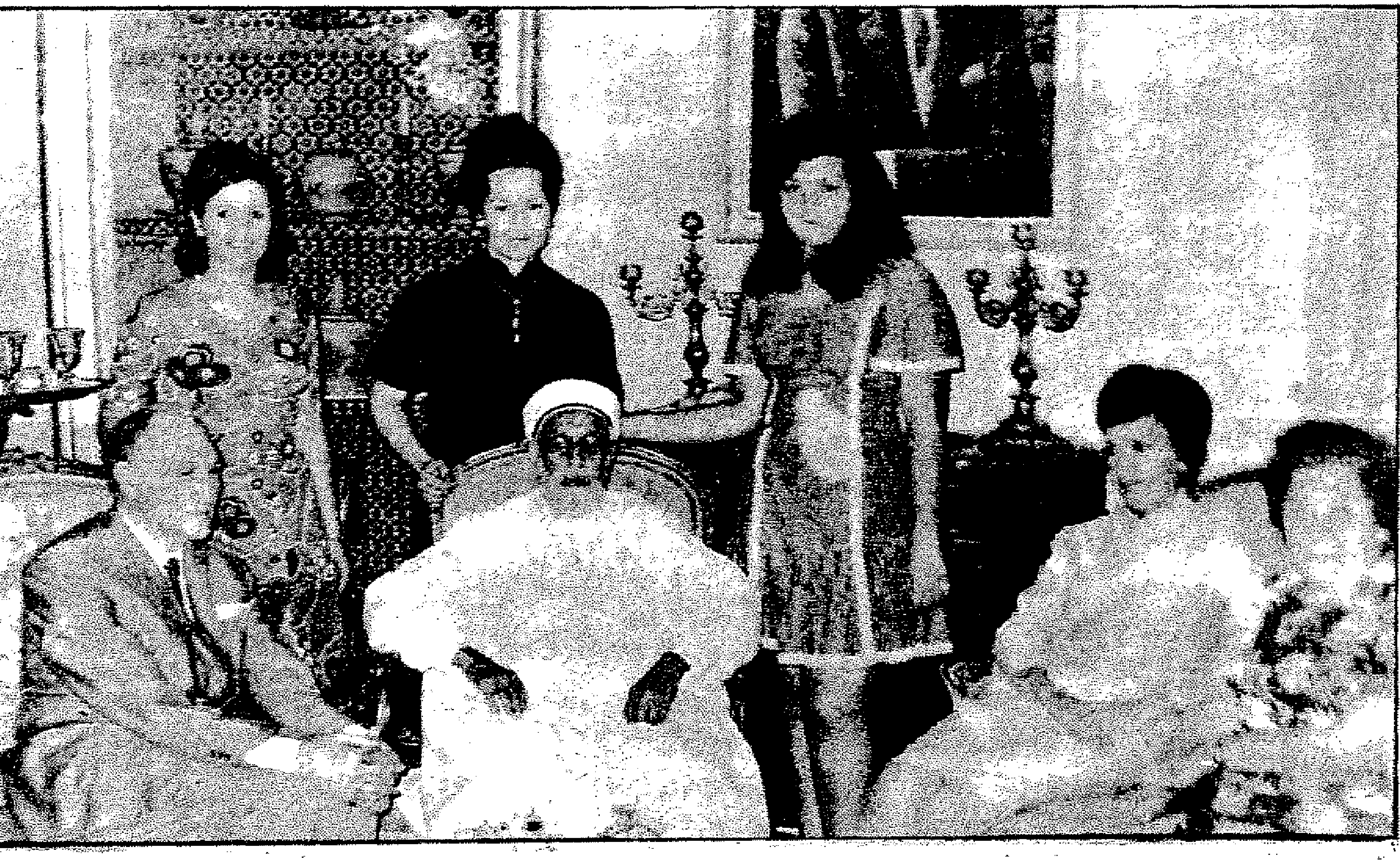
لم يغب من أعاد للضاد ما ضيها
وللعرب عزة الاسلام
من قضى العمر فى اللجوء الى الله
بأعماله الكبار العظام
رب هبه الرضا وأغدق عليه
فضلك الجم فى أبر مقام
وسلام عليه فى جنة الخلد
حليف الهناء والإنعام



أبي وأنا وابنتي أمينة في المعادى عام ١٩٦٨



أبى والأستاذ توفيق الحكيم والدكتورة بنت الشاطىء



أبي يستضيف في بيته ملك ليبيا وزوجته بعد ثورة ليبيا



أبى يستضيف الأمير عبد الله الفيصل فى جدة

فهرس

العدد القادم

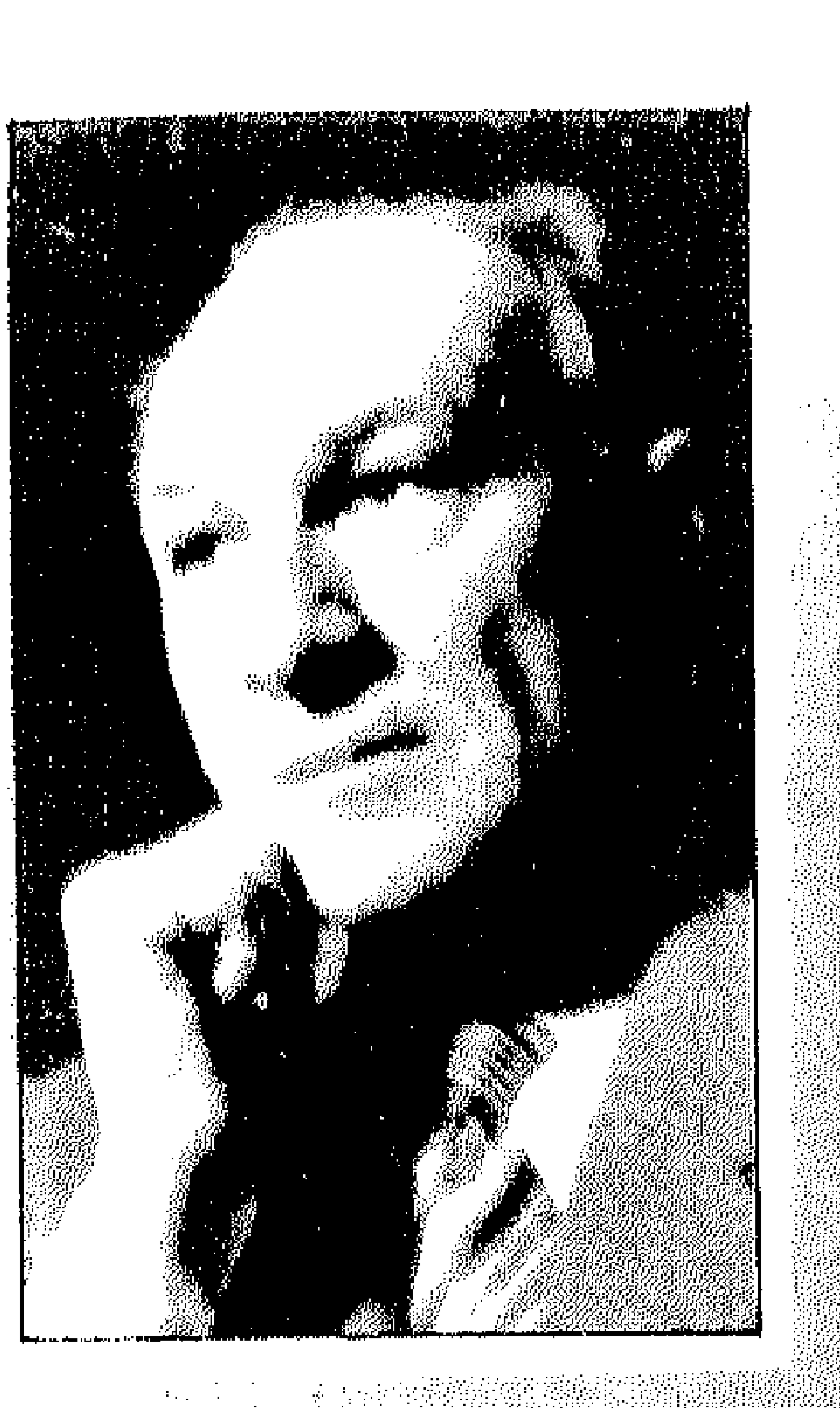
الدين والحضارة

دكتور محمود حمدى زقزوق

رقم الإيداع	١٩٩٨/٧٨٤٤	
الترقيم الدولى	977-02-5583-1	ISBN

١/٩٨/٢٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)

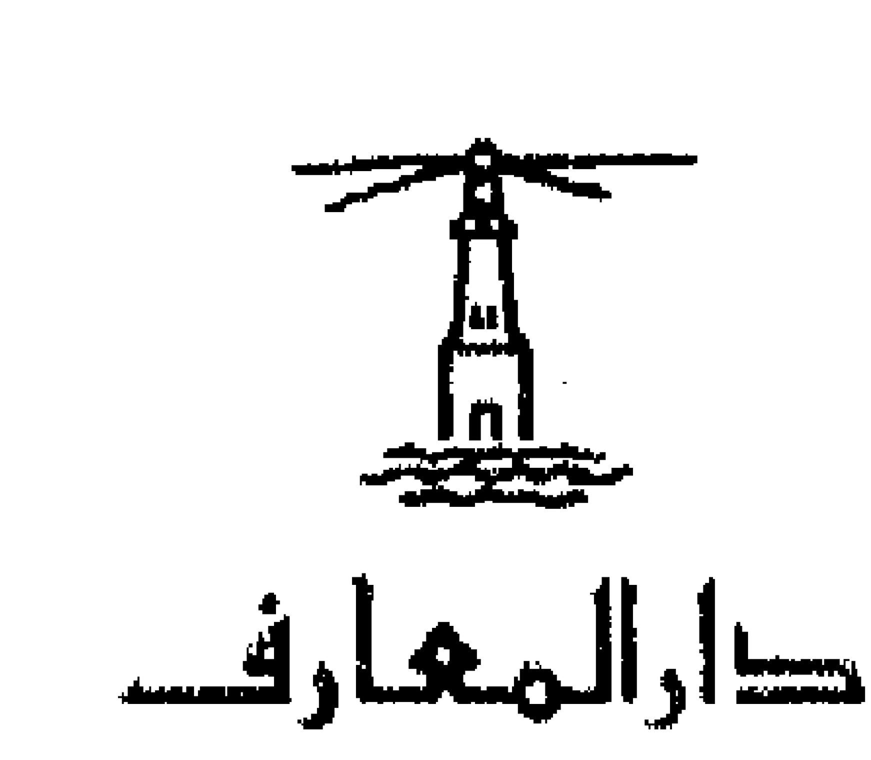


«نشأت فى بيت عزيز أباظة.. وكان البيت سعيداً هادئاً.. سمعنا فيه أول ما سمعنا الشعر، حتى قبل أن نسمع الكلام.

وكان أبى يقرأ الشعر العربى فى العصرين الجاهلى والإسلامى بصوت حنون.. فكنت أهتز له برغم أننى لم أكن أفهم منه حرفاً لصغر سنى.

وحتى الآن مازلت أراه وأسمعه يردد الأبيات الأثيرة عنده..»

عفاف عزيز أباظة



دار المعارف

٤٠٦٨٩٥/٠١